تاريخ الدولة العباسية

دكتور
صلاح خليل سلام
كلية الآداب - جامعة حلوان

تاريخ الدولة العباسية

هذا الكتاب يتناول تاريخ الدولة العباسية وهى من أهم الدول فى تاريخ الإسلام فقد إستمرت ما يزيد على خمسة قرون فى بغداد من سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وهى السنة التى وُلّىَ فيها أبو العباس السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الخلافة حتى سقوط بغداد على أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م ثم بقيت الخلافة فى البيت العباسى فى مصر بعد ذلك زُهاء ثلاثة قرون أخرى إلى سنة ٩٣٢ هـ / ١٥١٧ م .

وقد وصف صاحب " الفخرى " الدولة العباسية بأنها من " كبار الدول " التى ساست العالم الإسلامى سياسة ممزوجة بالدين والملك وكانت على عكس الدولة الأموية التى إعتبرها المؤرخون دولة عربية صرفة ، أما الدولة العباسية فكانت دولة إسلامية شعوبية فقد أتاحت تلك الدولة الفرصة للشعوب الخاضعة لها للمشاركة فى شئون الحكم و الإدارة ونواحى الحياة المختلفة ، وكان العرب فى الدولة العباسية شعباً من الشعوب التى تكون الدولة ، كما أن الدولة العباسية إختلفت عن الدولة الأموية فى أن الخلافة فى العصر العباسى لم تعد دولة واحدة يخضع لها جميع العالم الإسلامى ، فقد ظهرت فى تلك الفترة عدة دويلات مستقلة عن الخلافة العباسية .

نسبهم:

ينسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه و سلم ومنه تسلسل الخلفاء العباسيون وكان العباس قبل ظهور الدعوة الإسلامية تاجراً غنياً حتى أنه سدّد دين أخيه أبى طالب وكانت له دون إخوته من بنى هاشم بعض وظائف الكعبة ولا سيما سقاية الحجيج وولاية زمزم وكان العباس يحرص على مركزه المرموق فى مكة و لم يعلن إسلامه إلا مع إسلام أبى سفيان بن حرب فى سنة ٨ هـ .

ومن الملاحظ أن العباس بن عبد المطلب كان حريصا على أن تبقى الرئاسة فى بنى هاشم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يطمع فى طلبها لنفسه وذلك لوجود على ابن أبى طالب فقد رأى أنه أحق بالخلافة فقال له أثناء مرض الرسول الذى توفى به : "إذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر ، إن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان فى غيرنا علمناه ، فأوصى بنا . ولكن عليا قال له : إن منعناها لا تعطيناها الناس بعدى " .

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل العباس بن عبد المطلب على على بن أبى طالب وقال له : " يا ابن أخى هلم أبايعك ، فلا يختلف عليك إثنان " ولكن عليا تباطأ لإنشغاله بدفن النبى صلى الله عليه و سلم .

وقد رفض العباس مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه على الرغم من إتفاق الأنصار والمهاجرين على مبايعته إلا بعد أن بايعه على بن أبى طالب فبايع معه . وعندما بايع المسلمون عمر بن الخطاب لم يتطلع العباس إلى منصب الخلافة وظل عمر خليفة للمسلمين ما يقرب من عشر سنوات ، وعندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى إختار عمر ستة من كبار الصحابة ليختاروا واحدا من بينهم لخلافة المسلمين وهم : عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، طلحة بن عبيد الله ، الزبير بن العوام ، عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن أبى وقاص .

وقد إنتهوا إلى إختيار عثمان بن عفان فبايعه المسلمون وسارع على إلى مبايعته ، ولكن عثمان لم يستطع أن يكبح جماح أقربائه و لم يكن له من قوة الشخصية ما يمكنه من تصريف أمور الدولة بحرية و بمعزل عن أهواء ذوى قرباه ، وعندما عزل بعض العمال بقصد تولية سواهم من أقاربه نقم الناس عليه و أخذوا يوجهون إليه النقض وكان عمرو ابن العاص من أشد الناقمين على عثمان لأنه عزله عن ولاية مصر وولى عبد الله بن سعد إبن أبى سرح .

وجاء مقتل عثمان على يد الثائرين الذين وفدوا على المدينة من البصـــرة والكوفـــة والفسطاط بعد سلسلة من الإضطرابات شملت أنحاء متعددة من الدول الإسلامية وقد مـال بعض الثوار إلى تولية علىّ بعد مقتل عثمان وكان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصـار و لم يكن بالمدينة منهم إلا نفر قليل ومع ذلك فقد تمت البيعة لعلىّ بـن أبى طـالب ليكــون خليفةً للمسلمين و لم يكن بوسعه إلا أن يقبل حتى يُنقذ الدولة الإسلامية من الضياع ويضع حداً للفتن .

وكان العباس بن عبد المطلب وأبناؤه قد بايعوا علياً وأيدوه تأييداً كاملاً أثناء خلافتـه مما يشير إلى إنصراف العباس عن أحقيته فى الخلافة وقد إعتمد علىّ على العباس وأبنائـه فى قيادة الجيوش كما ولاّهم بعض الأمصار ، فولّى عبد الله بن العباس على مدينة البصـــرة وعبيد الله بن العباس اليمن ، كما أن عبد الله بن العباس كان قائد جيش علـىّ بـن أبى طالب فى معركة دومة الجندل سنة ٣٨ هـ ضد جيش معاوية بن أبى سفيان .

وقد كان عبد الله بن العباس مثل أبيه يحرص على أن تبقى الرئاسة فى بنى هاشـم دون أن يطمع فيها . وتشير الروايات إلى أنه قد نصح علىّ فى أن يبقى حكماً فى دومة الجنـدل بدلاً من أبى موسى الأشعرى حتى لا تقوم أى خدعة تُنحى بيت أبى هاشم فى حقـهم فى الخلافة ويبدو أنه قد حدثت بين عبد الله بن العباس وعلىّ بن أبى طالب خلافاً ربما لأنـه قدّر فشل سياسة علىّ فى الحفاظ على الخلافة لبنى هاشم ، أو لأن علياً هو الذى أبعـده لتصرفه بالأموال ، أو لأن شيعة علىّ حرضته ضده فإعتزل بن عباس علىّ بن أبى طـالب ومن بعده إبناه الحسن والحسين .

ويستشف من خلال النصوص أن عبد الله بن العباس كان سيد بنى هاشم بعد وفـاة الحسن والحسين فقد كان له موكب فى موسم الحج مثل موكب الخلفاء ، كما اعتبرمـن

أوائل علماء الفقه و إمام التفسير ، فقد جمع فقهه فى عشرين كتاباً و بلغ حديثه نحو ذلك وأنه كان يقرأ السور فيفسرها آية آية حتى اعتبر فتى الكهول و عرف ببحر الأمة . ولكن ظَلّ عبد الله بن العباس مُعرضاً عن الخلافة ، ورفض مبايعة عبد الله بن الزبير ويزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، حتى أخرجه إبن الزبير ومحمد بن علىّ بن أبى طالب المعروف بإبن الحنفية إلى الطائف إلى أن توفى بها سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م عن إحدى وسبعين سنة .

ويبدو من خلال النصوص التاريخية أن الفرع العباسى بدأ يطمع فى الخلافة فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك ، حيث تشير الروايات إلى أن أول من سعى إليها هو علىّ بن عبد الله بن عباس الذى توفى سنة ١١٧ هـ / ٧٣٦ م والذى كان يقيم فى قرية الحُمَيمَة وهى قرية جنوب البحر الميت على طريق القوافل و الحج ، وكان يقيم فى نفس القرية أبو هاشم عبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى كانت له شيعة أهل البيت ، وله دعوة تُعرف بالمختارية أو الكيسانية نسبة إلى المختار الملقب بكيسان الذى كان يدعو لأبيه محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية فلما قربت وفاته "كانت سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م " تنازل عن حقه فى الخلافة لعلى بن عبد الله " الذى توفى سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م " و أوصى أتباعه بتنفيذ وصيته هذه ، كما سلمه خاتمه الذى كان يختم به الكتب إلى الدعاة .

إنتهز محمد بن على بن عبد الله بن العباس هذه الوصية للمطالبة بأحقية البيت العباسى بالخلافة الإسلامية ولكى لا يثير العباسيون الشكوك حولهم جعلوا شعارها الرضا من آل محمد ، أى جعلوها لآل النبى صلى الله عليه و سلم .

ومما لا شك فيه أن من أهم أسباب نجاح الدعوة العباسية أن العباسيين جعلوا الدعوة تضم بنى هاشم كلهم ، وخاصةً العلويين لمحبة الناس لهم وميلهم لأبناء علىّ بن أبى طالب ،

ومؤازرتهم فى المطالبة بالخلافة خاصةً أهل خراسان الذين كانوا يؤمنون بمبدأ الحق الإلهـــى من قديم ويرون أن الخلافة لابد أن تكون فى البيت العلوى .

فكانت الدعوة لآل البيت بهذا الشكل أكثر واقعية من دعوة الكيسانية التى تدعـــو للمهدى المنتظر والذى أطلقت من قبل على علىّ والحسين حتى أن إبن الحنفية ومن بعـده إبنه أبو هاشم كلاهما كان يسمى بالمهدى .

كما سلكت الدعوة السرية التامة ، وأوجدت لها تنظيماً جديداً فكان لها مجلس مـن إثنى عشر رجلاً ، عرفوا بالنقباء ، أما الدعاة فكان عددهم كبير بلغ السبعين . و إختـــار محمد بن على هؤلاء النقباء و على رأسهم سليمان بن كثير الخزاعى رئيســاً للنقبــاء فى خراسان ، وطلحة بن رزيق ، وكنيته أبو منصور وهو جد آل طاهر ولاة خراسان من قبل العباسيين فيما بعد وكان الأخير حلقة الصلة بين الإمام والدعاة إذ كــان علـى معرفـة بمذاهب الهاشمية التى ورثتها الدعوة العباسية ، ولاهز بن قريظ التميمى وقحطبة بن شـبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمى وخالد بن إبراهيم أبو داود من بنى شيبان ، و القاسـم ابن مجاشع التميمى ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى أبى معيط ومالك بـن هيثـم الخزاعى وعمرو بن أيمن أبو حمزة مولى خزاعة وشبل بن طهمان أبو على الهروى مولى بنى حنيفة وعيسى بن أيمن .

ويبدو أن هؤلاء الدعاة كانوا ينبثون فى الأقطار فى سرية تامة فكان بعضهم يـتزيون بزى التجار أو أن بعضهم كان يحترف حرفة التجارة فقد أرسل ميسرة داعى العباسـيين بالعراق بعض رجاله إلى خراسان سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م متنكرين فى زى تجار فعلم بهم

والى الأمويين فلما إستدعاهم أنكروا ما إتهمهم به بدعوة الناس للتخلص من بنى أمية ، و لم يخل سبيلهم إلا بتعهد بعض أهالى خراسان ممن يعرفونهم بأنهم لا صلة لهم بهذا الأمر .

وكان محمد بن على يجتمع بهؤلاء الدعاة فى موسم الحج فيأخذون منــــه الأوامــر ، ويأتون إليه بالمال ، وكان بعضهم يقع فى أيدى رجال الدولة الأموية فإذا كشف أمرهـــم فإنهم يضربون بالسياط أو يصلبون .

وقد لجأ الدعاة إلى الرمز أو التأويل ، فالصوم هو ذكر الإمام ، والصلاة الدعاء لــه ، والحج هو القصد إليه . وتشير النصوص التاريخية إلى أن محمد بن على اعتمد بصفة خاصة على توجيه الدعاة فى أسرع وقت ، فوجه أبا رباح النبال مولى الأزد إلى الكوفة للدعـــوة لآل البيت سنة ٩٧هـــ - ٩٨هـــ/٧١٦م.

وقد وجهت الدعوة بصفة خاصة إلى الذين أسلموا من شعوب البلاد المفتوحة بسـبب أن العرب كانوا عصب الدولة الأموية ، وقد ساعد على انتشار دعوة الرضا من آل البيت أن الدولة الأموية لم تسو بينهم وبين العرب على الرغم من إسلامهم ، فقد فرضت عليهم كثير من الضرائب ، وأطلقت عليهم اسم الموالى وهى كلمة تعنى الخاضعين لقبائل العرب.

وقد كان الموالى يطالبون بالعدالة الإجتماعية وبالمساواة بينهم وبين العرب حتى أنهـم تسموا بأهل التسوية ، وكانت الشعوبية تعنى فى وقت ما القومية ، وهـــى وإن كـــانت حركة كلامية فى بداية أمرها للتفاخر على العرب ، إلا أن لها مدلولا قوميا دعمتها الفـــتن والثورات حتى ان الخلافة الأموية أصبحت إسمية على هؤلاء ، و اعتبر المــوالى الأمويـــين مغتصبين لحق آل البيت ، كما أغضبهم سوء معاملة الأمويـــين لآل البيـــت وحرقـــهم الكعبـــة بالمجانيق بل إعتبروا الأمويين خارجين على الدين لإقبالهم على حياة اللهو وكانت

لوسائل التشهير بالأمويين أثر فعال فى نجاح الدعوة الجديدة وتقويض أركان الدولة الأموية وإيذاناً بظهور الدولة العباسية .

وقد ساهم الأمويون بطريق غير مباشر فى إنهيار دولتهم خاصة منذ وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك ، إذ سرعان ما إنقلب أمراء البيت على أنفسهم وأصبحت الخلافة مطمعاً لكل أمير أموى .

و لم يأل دعاة العباسيين جهداً فى إذكاء نار العصبية القبلية بين العرب فأخذوا يضربون بعضهم ببعض ، وتورط الأمويين فى هذه المنازعات بل زادوها ضراوة ، و لم يبالوا بما يجرى ضد الدولة الأموية من مؤامرات ودسائس تستهدف القضاء على سلطتهم والتخلص من حكمهم فأعطوا بذلك للدعوة الجديدة سلاحاً للنيل منهم .

والواضح أن الوضع السياسى والإقتصادى والإجتماعى فى الدولة الأموية كان يستلزم ثورة تقضى على هذا الفساد فى نظام الحكم الأموى ويعيد للأذهان حياة كريمة للناس ويساوى بين المسلمين ويعيد حكم الشورى لذلك كانت الأذهان مهيئة فى أواخر العهد الأموى لعصر جديد هو العصر العباسى .

ومع أن الكوفة كانت إلى وقتئذ منطلقاً للفتن العلوية بسبب تشيع معظم أهلها ، إلا ان الدعوة لآل البيت إختارت المكان المناسب بالنسبة لها وهو : خراسان وكانت تطلق على البلاد التى أول حدودها مما يلى العراق وآخر حدودها مما يلى الهند وإمتدت إلى ما بعد بلاد ما وراء النهر إلى خوارزم وكان آخر من تولاها هو نصر بن سيار ، وكانت خراسان مركز صقل فى الخلافة الأموية.وأهم ثغور المسلمين لأنه يجابه الهنود والترك والمغول وحتى أهل الصين .

وكان أهل خراسان ومعظمهم من الفرس أسرع الناس إلى الإسلام بعد أن سقطت دولة الساسانيين وكانوا أكثر البلاد سنداً للإسلام السنى ويصف محمد بن على العباسى أهل خراسان فيقول : إن هناك العدد الكبير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليها فساد وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة .

ومن ثم فقد إختار العباسيون خراسان ساحة للدعوة لآل البيت وخصوصاً أنه قد ذاعت أحاديث نبوية بظهور دولة بنى هاشم من خراسان ، كما روجت روايات عن أئمة العباسيين أن نصرهم يكون منها .

وقد كان من أبرز الدعاة فى خراسان سليمان بن كثير الخزاعى وكان له دور بارز هو وأعوانه فى الدعوة للرضا من آل البيت وقدم بكير بن ماهان داعى العباسيين بالكوفة فأجابه خلق كثير إلى خلع بنى أمية وبيعة بنى هاشم ولما توفى بن ماهان إستخلف أبا الخلال سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م فمضى أبو سلمة إلى خراسان فدفع له أهلها ما إجتمع عندهم من نفقات الشيعة و خمس أموالهم .

وفى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م إنضم إلى محمد بن على العباسى عبد الرحمن بن مسلم المكنى بأبى مسلم الخراسانى الذى لم يتجاوز عمره إذ ذاك تسعة عشر سنة وهو شاب إختلفت الروايات فى أصله ونشأته فقيل إنه من موالى قبيلة بنى عجل بالكوفة ، أو أنه عبد إشتراه احد الدعاة العباسيين و ينسبه البعض إلى سليط بن عبد الله بن العباس ، أو أن أصله إيرانى من أصبهان وأنه إنتقل إلى الكوفة .

و تشير الروايات إلى أن أبي مسلم الخراساني قد تلقى أصول الدعوة عن بكير بن ماهان كبير دعاة آل البيت فى الكوفة ، و فى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م توفى محمد بن على العباسى بعد أخذ البيعة بالإمامة لابنه إبراهيم و من بعده أخيه أبو العباس عبد الله بن محمد من أمه ريطة الحارسية وعهد بأمر الدعوة إلى أبي مسلم الخراساني حتى يتم على يديه قيام الدولة .

وقد بدأ العباسيون العمل ضد الدولة الأموية منذ سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م ، وكانت العصبية بين المضرية واليمنية قائمة وقتذاك فى خراسان بسبب تعصب واليها نصر ابن يسار وإنحيازه إلى قومه من المضرية فثارت ضده اليمنية بقيادة جديع بن على الكرمانى غير أن نصر بن يسار تمكن من القبض عليه وحبسه فثارت اليمنية ونجحوا فى إخراجه فقرر الكرمانى محاربة نصر والى خراسان .

ولقد إنتهز أبو مسلم الخراسانى الصراع بين عصبيات الجيش الأموى فى إشعال نار الثورة ولا سيما أنه كان يتمتع بالدهاء والذكاء وكان إبراهيم الإمام قد كتب له كتاباً جاء فيه : " إنك رجل منا أهل البيت ، إحفظ وصيتى ، أنظر إلى هذا الحى من اليمن إلزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم - وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار ، واقتل من شككت فى أمرهم ، وإن إستطعت ألا تبقى بخراسان من يتكلم العربية فافعل " .

ويتضح من هذا النص أن الدعوة لآل البيت قد إعتبرت العرب اليمانية أنصاراً لدعوتهم ، والقيسية أعداء لهم ، كما يتضح أيضاً مدى إعتماد الدعوة على العنصر الفارسى فى بلاد خراسان ومن ثم فقد أخذ أبو مسلم يزيد من هوة الخلاف بين اليمنية والقيسية ، فمن ناحية أراد أن يضم اليمانية بزعامة على بن جديع الكرمانى للدعوة خاصةً وأن اليمانية كانت من أهم القبائل فى الكوفة التى إعتنقت المذهب الشيعى ، وكان

الكرمانى نفسه ساخطاً على الأمويين ، فأثار أبو مسلم الخرسانى العداوة بين اليمانية والقيسية ، حتى تحاربتا وقُتل الكرمانى ، فأخذ أولاده على عاتقهم الأخذ بالثأر من المضرية وعلى رأسها نصر بن سيار عامل خراسان ، وذلك بالدخول فى دعوة آل البيت ومن ثم زادت قوة أبو مسلم حتى أنه إنضم إليه فى مرة واحدة أهل ستين قرية من نواحى مرو ، أهم مدن خراسان .

وتشير النصوص التاريخية إلى أن نصر بن سيار حينما أحس بإزدياد قوة أبو مسلم الخراسانى وقيام بعض عماله بإتخاذهم السواد شعار العباسيين وخلع طاعة الأمويين ، طلب النجدة من الخليفة الأموى مروان بن محمد و أخبره أن أبا مسلم يدعو إلى إبراهيم بن محمد العباسى ، فأرسل مروان إلى عامله بالبلقاء بالمسير إلى الحميمة لإلقاء القبض على الإمام إبراهيم الذى جيء به إلى المروان فقتله مروان و أرسل رجاله للقبض على أخيه أبو العباس السفاح ، غير أنهم لم يعثروا عليه .

وقد أرسل مروان بن محمد إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامله على العراق وأوصله أن يمد نصر بن يسار بالجيوش لمواجهة خطر أبى مسلم ، فأرسل بن هبيرة جيشاً بقيادة نباتة بن حنظلة ، أما أبو مسلم فقد تمكن من السيطرة على كثير من مدن خراسان ، أما جيوش العباسيين بقيادة قحطبة بن شبيب فقد إستطاعت هزيمة جيش الأمويين بقيادة نباتة إبن حنظلة الذى قُتل فى تلك المعركة سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م .

وإستطاع قحطبة بن شبيب وإبنه الحسن فتح كثير من المدن مثل قومس و نهاوند وحلوان ، خاصةً بعد وفاة نصر بن سيار سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م بجوار الرى ومن ثم غلب أبو مسلم على خراسان كلها . توجه بعد ذلك قحطبة بن شبيب إلى العراق فعبر نهر دجلة وسار بقواته حتى وصل إلى مكان بالقرب من الأنبار ، فحاول عامل العراق يزيد بن عمر بن هبيرة صدّه بجند من أهل الشام ، ولكن قحطبة هزمه فى المحرّم سنة ١٣٢ هـ /

أغسطس ٧٤٩ م ، غير أن قحطبة لم يلبث أن توفى ، فتولى قيادة جنده إبنه الحسن بـــن قحطبة الذى توجه إلى الكوفة وهى من أهم مدن العراق قبل إنشاء بغداد على يد الخليفـــة العباسى أبو جعفر المنصور ، وكان محمد بن عبد الله القسرى قد تمكن من أخذ الدعـــوة للعباسيين فى الكوفة وقام بطرد عاملها زياد بن صالح الحارسى ، وأظهر الســـواد شـــعار العباسيين ، وأرسل إلى ابن قحطبة يخبره بدخول الكوفة فى طاعته فتوجه الحسن بن قحطبة إليها وتمكن من دخولها فى صفر سنة ١٣٢ هـــ / أكتوبر ٧٤٩ م ، ونزل على أبى ســـلمة الخلال ، الذى كان من أغنياء الكوفة ينفق أمواله على الدعوة لآل البيت حتى لقب بوزير آل محمد ، وقد قام بأمر الدعوة منذ سنة ١٢٧ هـــ / ٧٤٤ م ، وكان له دور نشـــط فى إستيلاء العباسيين على الكوفة .

أما ابن هبيرة فقد هرب بقواته إلى بلدة واسط الواقعة بين نهرى دجلة والفـــرات ، وقد أتاح ذلك المجال لأبى سلمة الخلال أن يبايع بالخلافة لمن أوصى إليه الإمـــام إبراهيـــم وهو أخوه أبو العباس عبد الله بن محمد الذى ولد فى الحميمة سنة ١٠٤ هـــ / ٧٢٢ م أوسنة ١٠٨ هـــ / ٦٢٦ م ، فعقد له البيعة ومعه الدعاة العباسيين وحضرها أيضا أخـــوة بنى العباس و عمومته و أقاربه ، وأقبل الناس على أبى العباس يبايعونه بالخلافة وذلـــك فى مسجد الكوفة فى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـــ / أكتوبر ٧٤٩ م ، وتسمى أبو العباس بأمير المؤمنين وبذلك بدأت الخلافة العباسية به فصعد المنبر وألقى خطابا فـــاخر فيه بقرابته للرسول صلى الله عليه وسلم لنسبه إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : " الحمد لله الذى خصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته وأنشـــأنا فى آبائه .. وقام بالأمر بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم ، فعدلـــوا فيها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها .. فظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينـــا حـــتى آسفوه ، فلما آسفوه إنتقم منهم بأيدينا ، و رد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا " .

العصر العباسى الأول

١٣٢ - ٢٣٢ هـ

يشغل هذا العصر قرنا من الزمان من عمر الخلافة العباسية التى عمرت أكثر من خمسة قرون ، والمؤرخون يرون أن هذا العصر الأول هو عصر القوة السياسية حيث سيطر خلفاء الدولة العباسية على معظم أجزاء الدولة حكم فيه تسع من الخلفاء العباسيين بداية من أبى العباس و نهاية بعهد الواثق بن المعتصم والخلفاء الذين حكموا فى هذا العصر هم على الترتيب : -

أبو عبد الله السفاح أول الخلفاء ، ثم أبو جعفر المنصور ، ثم المهدى ، ثم الهادى ، ثم أخوه هارون الرشيد ، فإبنه الأمين ، فالمأمون ، ثم المعتصم ، وأخيرا الواثق بن المعتصم .

و سنحاول أن نلقى بعض الضوء على خلافة كل منهم وأهم المشكلات التى واجهتهم وكيفية مواجهتها ، وقد كانت تلك المشكلات هى التى حملت بذور الضعف الذى أصاب الخلافة العباسية وأدت إلى سقوط بغداد عاصمة الخلافة سنة ٦٥٦ هـ فى أيدى المغول .

أبو العباس السفاح "١٣٢ - ١٣٦هـ"

أول خلفاء هذه الدولة هو أبو العباس الملقب بالسفاح ، ومدة حكمه قصيرة أربع سنوات فقط ، شهدت الكثير من الأحداث السياسية الهامة فقد أصبح عمل أبى العباس هو تثبيت دعائم الدولة العباسية الناشئة فقام بتعيين أقربائه وشيعته على الولايات والأمصار ، فأسند الحجاز إلى عمه داود ، وولى عمه عبد الله على دمشق ، وولى أخاه أبا جعفر على أرمينية والجزيرة وأزربيجان ، وعمه صالح على مصر ، وعمه سليمان على البصرة وأعمالها ، وعمه إسماعيل الأهواز ، أما أبو مسلم الخراسانى فقد ولاه حكم خراسان وبلاد الجبال ، وقد إستطاع بذلك أن يضمن إلى حد كبير ولاء معظم عماله له خاصة وأن الدولة فى بداية نشأتها .

كان لابد للخليفة العباسى مطاردة فلول الأمويين والقضاء على آخر خلفائهم مروان ابن محمد الذى ضعفت معناوياته هو وأنصار بيته نتيجة للهزائم التى لحقت بالدولة الأموية فى بلاد خراسان والعراق وبسبب إعلان خليفة من آل البيت .

أسند الخليفة العباسى مهمة التخلص من مروان بن محمد إلى عمه عبد الله بن على ، فأمده بالقوات اللازمة ودارت بينهم عدة مناوشات تبادلا فيها النصر والهزيمة ، ثم إشتبك الجيشان العباسى والأموى فى معركة حامية الوطيس على نهر الزاب الكبير أحد روافد نهر دجلة من أرض الجزيرة فى شمال العراق ، وقد إستمرت المعركة مدة يومين هزم فيها جيش مروان بسبب الفساد والخلل الذين ظهرا فى جيشه على الرغم من أنه وضع ذهبا كثيرا فى محاولة منه لتشجيع جنده على القتال ، إلا أن الجند أخذت الأموال و لم تحارب ، وزاد

الأمر سوءا أن جيش العباسيين قام بقطع الجسر الذى عبر عليه مروان فغرق كثير من جيشه فى نهر الزاب فى موضع منه عرف بإسم كشاف وذلك فى جمادى الآخر سنة ١٣٢ هـ / يناير ٧٥٠ م ، وكان من بين من غرق بعض أفراد البيت الأموى نذكر منهم : إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك وسعيد بن هشام بن عبد الملك ويحيى بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك أخو عبد الرحمن الداخل الذى إستطاع تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس .

وبعد هزيمة مروان فر إلى الموصل فمنعه واليها هشام بن عمر التغلبى من عبور النهر فقطع الجسر حتى يحول دون أن يدخلها ، كذلك ثار عليه أهلها ويبدو أنهم إستكثروا على خليفة الفرار ، ومن ثم إضطر الخليفة مروان إلى عبور نهر دجلة فنزل حران ، وكان مروان قد إتخذها مركزا له طوال مدة خلافته ، ثم توجه منها إلى حمص ثم تقدم مروان إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية يريد التحصن بها ، إلا أن أهلها تنكروا له ونهبوا ما معه مما إضطره إلى الخروج فتتبعه عبد الله بن على وتمكن بعد حصار شديد لدمشق من الإستيلاء عليها بعد هزيمة الوليد بن معاوية نائب مروان بن محمد فى دمشق وذلك فى رمضان سنة ١٣٢ هـ بعد أربعة اشهر من معركة نهر الزاب ، ويقال أن عبد الله قتل بها ألوفا كثيرة من الجند والأمراء .

أما مروان فقد فر إلى الأردن ثم إلى فلسطين فتتبعه عبد الله فيهما وإستولى عليهما ثم فر مروان إلى مصر وعند ذلك توقف عبد الله بن على عن مطاردته بأمر من الخليفة أبو العباس السفاح بعد أن استولى جيش العباسيين على بلاد الشام مثلما إستولوا من قبل على بلاد الجزيرة وخراسان .

أما أبو عبد الله السفاح فقد أسند مهمة مطاردة مروان بن محمد إلى عمه صالح بن على ، فطارده إلى أن إستطاع فى نهاية الأمر هزيمة مروان بن محمد و قتله فى قرية بوصير

من قرى الفيوم بالصعيد وهى حدود بنى سويف حاليا ، فحزت رأسه فى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ / اغسطس سنة ٧٥٠ م ثم أرسلت رأسه إلى الخليفة العباسى السفاح فى الكوفة فلما رآه خر ساجدا و قال : " الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ، و لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين " .

بهذا خلص للعباسيين ملك الأمويين عدا الأندلس التى إستقل بها عبد الرحمن الداخل إبن معاوية بن هشام بعد فراره من المشرق .

إبان ذلك لم تتوقف الخلافة العباسية عن تتبع أفراد البيت الأموى بالقتل ، وقد بدأت بأولاد مروان بن محمد ، فقتلوا عبيد الله بن مروان الذى حاول الفرار إلى اليمن كما تم القبض على نساء مروان بن محمد ، كما عمد عبد الله بن على عم الخليفة العباسى إلى تصيد كل أموى ، خاصة فى بلاد الشام ، ويقال أنه قد قتل سبعون رجلا منهم قرب الرملة من أرض فلسطين بعد أن أعطاهم الأمان ، وتشير بعض الروايات إلى أن عبد الله عمد إلى نبش قبور الخلفاء الأمويين فنبش قبر معاوية مؤسس خلافتهم وتتبع بقية القبور بحرق بقاياها حيث كان الخلفاء الأمويون يدفنون حيث يموتون .

أما صالح بن على فقد قتل كثيرا منهم ومن أنصارهم فى مصر وحمل طائفة منهم إلى العراق وقتل بعضهم بأرض فلسطين ، كما قتل سليمان بن على بن عبد الله بالبصرة جماعة منهم وقد أحدثت هذه المعاملة الوحشية الذعر فى نفوس من بقى من أبناء الأمويين حتى أن أحدهم وهو عمرو بن معاوية بن سفيان يقول : " وكنت لا آتى مكانا إلا عرفت فيه ، فضاقت على الأرض ، فقدمت إلى سليمان بن على وهو لا يعرفنى فقلت لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك فإما قتلتنى فاسترحت و إما رددتنى سالما فأمنت . فقال: ومن أنت ؟ فعرفته نفسى فقال : مرحبا بك ، ما حاجتك ؟ فقلت : إن الحرم اللواتى أنت أولى الناس بهن و أقربهم إليهن قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه ، قال : فبكى

كثيرا ثم قال : يحقن الله دمك ويحفظ حرمك ، ثم كتب إلى السفاح : يا أمير المؤمنين ، إنه قد وفد من بنى أمية علينا وإنا إنما قاتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فإنه يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقتل ، وترفع ولا توضع ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل ، وإن فعل فليكتب أمانا عاما إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه علينا وإحسانه إلينا " . فأجابه أبو العباس السفاح إلى ما سأل وكان هذا أول أمان عام لبنى أمية.

و مما لا شك فيه أن سياسة أول خلفاء الدولة العباسية العدائية تجاه الأمويين قد أثارت سخط أنصار بنى أمية ، فقاموا بعدة ثورات ضد حكم السفاح فى بلاد الشام بالرغم من مبايعة معظم أهلها لعبد الله بن على والى العباسيين عقب وفاة مروان بن محمد ورفع بعضهم راية العصيان متخذين البياض شعارا لهم كما فعل حبيب بن مرة بحوران ، وكانت دمشق من أهم المدن التى ثارت فى وجه العباسيين فثار أهلها بقيادة عثمان بن عبد الأعلى غير أن عبد الله بن على تمكن من إخماد تلك الثورة ، كما إستطاع إخماد ثورة قنسرين وفرار محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية الملقب بالسفيانى.

كذلك قامت عدة ثورات فى بلاد الحجاز والجزيرة والعراق ، وحاولوا إعادة الحكم الأموى وإزالة حكم بنى العباس ، وقد نجحت قوات السفاح فى القضاء كذلك على ثورة زياد بن صالح فيما وراء النهر وثورة مسافر بن كثير فى أرمينية .

وقد إتهم السفاح وزيره أبا سلمة الخلال بالتشيع للعلويين ومحاولة نقل الخلافة من بيت العباسيين إلى العلويين ، وللتخلص من الخلال إستشار فيه أخاه أبا جعفر المنصور وأبا مسلم الخراسانى ، فأشار عليه الأخير بضرورة قتله فاستدرجه إلى القصر وأرسل أبو مسلم الخراسانى مرار بن أنس الضبى الذى تكفل بقتله وأعقب مقتل أبى سلمة قتل سليمان بن كثير ، قتله أبو مسلم لإتهامه بدعوة عبيد الله بن الحسن .

وقد تميزت العلاقات بين العلويين والخليفة العباسى السفاح بالود وكان يقوى ذلك كراهيتهم للحكم الأموى ، وفى نفس الوقت حرص الخليفة العباسى على إستمالتهم فقد كان عبد الله بن الحسن وأخيه الحسن يترددان على السفاح ، وكان الأخير حريصا على إكرامهما ، وفى نفس الوقت لم يحاول الخليفة العباسى القبض على محمد بن عبد الله أخاهما عندما حاول الدعوة لنفسه بالمدينة المنورة .

حقا أن الكوفة كانت أول مدينة خطب فيها السفاح بعد نجاح الدعوة لآل البيت لكنه لم يتخذها عاصمة للخلافة العباسية ، لأنه كان يعلم أن أهلها شيعة علوية . ويبدو أن التحالف بين العلويين والعباسيين قد إنقلب إلى كره وعداء خاصة وأن العلويين قد أحسوا أنهم قد خدعوا من قبل أبناء عمومتهم وأن السفاح لم يعد بعد القضاء على الأمويين يرى ضرورة لإستمرار هذا التحالف ، ومن ثم إتخذ له عاصمة جديدة هى الهاشمية بالقرب من الأنبار .

وتوفى السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ / يونيه ٧٥٤ م فى مدينة الهاشمية بعد أن قضى ما يقرب من أربع سنوات فى تعقب بنى أمية والقضاء عليهم ، وعهد بالخلافة من بعده لأخيه أبى جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور .

أبو جعفر المنصور "١٣٦ - ١٥٨ هـ"

يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية ، فقد كان المحرك لمعظم الحوادث فى وقت حياة أخيه ، وقد إستطاع المنصور أن يقضى بحزمه على الحركات المعارضة التى واجهت دولته ، أهمها ثورة عمه عبد الله بن علىّ والى الشام فقد رفض الدخول فى طاعته مُدعياً أن أبا العباس السفاح قال : " من خرج إلى مروان بن محمد فهو ولى عهدى " . أى أن أبا العباس قد ولاه عهده فندب أبو جعفر المنصور لقتاله أبو مسلم الخراسانى الذى سار على رأس جيش كبير للقضاء على ثورة عبد الله بن على ، فاستعد عبد الله لحربه وخوفاً من الجند الخراسانية فى جيشه أن يخرجوا عليه فأمر صاحب شرطته بقتلهم فقتل منهم سبعة عشر ألفاً وإلتقى أبو مسلم وعبد الله فى بلاد الجزيرة فى عدة معارك إستمرت خمسة أو ستة شهور ، ومع أن أهل الشام قد أعلنوا الرغبة فى مساعدة عبد الله بن على إلا أنهم لم يناصروه بسبب عداوتهم للعباسيين وإنتهى الأمر بهزيمة عبد الله إبن على أمام أبى مسلم فارتحل عبد الله إلى البصرة عند أخيه سليمان الذى كان واليها حيث أقام فترة مختفياً عن الأنظار ، ولكن المنصور تمكن من إلقاء القبض عليه سنة ١٣٩هـ / ٧٥٦ م وسجنه فى قصره وظل حبيساً حتى مات فى عام ١٤٧ هـ / ٧٦٤م.

ثم لم تلبث العلاقات أن ساءت بين المنصور وقائده أبى مسلم الخراسانى بعد أن تخلص الأول من ثورة عمه عبد الله بن على ومما لاشك فيه أن أبا جعفر المنصور كان يخشى على الدولة العباسية من إزدياد نفوذ أبى مسلم ومن إلتفاف الفرس الذين تلقوا الدعوة منهم فدانوا له بالطاعة ، فضلاً عن ولايته لأهم ولاية فى الدولة العباسية وهى خراسان ، حتى أصبح يتمتع بنفوذ كبير فى ظل خلافة أبى العباس السفاح حتى أن الأخير لم يكن يقطع أى رأى إلا بعد أن يأخذ رأى أبى مسلم الخراسانى ، و يبدو أن أبا جعفر

كان متخوفا من إزدياد نفوذ أبى مسلم فقد حذر السفاح أثناء خلافته فقال له : " أحـلف والله إن لم تتغذه اليوم ، أن يتعشاك غدا . " و مما زاد من توجس أبى جعفـــر مـــن أبى مسلم الخراسانى ما نما إلى علم المنصور أن أبا مسلم قد أسرف فى قتل الجنود العرب مـــن جيش عبد الله بن على وتغاضى عن الخراسانيين وأن المنصور أرسل إلى أبى مسلم رســولا لإحصاء الغنائم التى آلت إليهم من جيش عبد الله بن على فإعتبر أبو مسلم ان هذا العمـل إجحافا به ، وقال : " أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال ؟ " . فغادر بلاد الشـــام إلى خراسان ، فأرسل إليه الخليفة المنصور يدعوه إلى أن يكون واليا على مصر والشام وأن يتولى هشام بن عمرو العقيلى خراسان ، فرد عليه بقولـــه : " يوليـــنى الشـــام ومصـــر وخراسان" . فلم يكن أمام الخليفة المنصور إلا أن يستعمل معه الحيلة والدهاء حتى يفـــد عليه فى بغداد ولكن أبا مسلم كان إلى وقتذاك لم تتخل عنه عبقريته فأرسل إلى المنصـــور يقول : " إنه لم يبق لأمير المؤمنين-أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عـــن ملوك آل ساسان إن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربـك حريصون على الوفاء لك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيـــد حيـــث يقارنها السلامة فإن أرضاك فإنا كأحسن عبيدك وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتهـــا نقدت ما أبرمت من عهدك . "

ومما لا شك فيه أن أبا مسلم كان يدرك ما كان يدبره له أبو جعفر وفى نفس الوقت كان الأخير قد عزم على التخلص من أبى مسلم فقد كتب إليه أبو جعفر كتابا يدل علـــى مدى دهائه إستدرج فيه أبى مسلم بقوله : " قد فهمت كتابك وليست صفتـــك صفـــة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون إضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنمـــا راحتهم فى إنتصار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومنا صحتـــك وإضلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس من الشريطة التى أوجبـــت منك سمعا ولا طاعة وإسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجـــد بابـــا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذى فتحه عليك . "

وكان من حيل المنصور للإيقاع بأبى مسلم أنه طلب من وجوه بنى هاشم بالكتابة إليه لتحريضه على التمسك بالطاعة وتحذيره من العصيان ، فكتبوا إليه يقبحون عليه خلاف أبى جعفر المنصور ويحسنون له الحضور عنده حتى يكشف الغمة بينهما ، ويبدو أن المنصور لجأ إلى حيلة أخرى وهى شراء أتباع أبى مسلم حتى ينفضوا عنه ، وفى نهاية الأمر قرر أبو مسلم التوجه إلى العراق فوصل إلى المدائن فى ثلاثة آلاف رجل فلما دنا من معسكر المنصور أمر الناس بتلقيه فتلقاه بنو هاشم ثم دخل على المنصور ادناه وأكرمه ، ثم أمره ان يعود إلى خيمته ليريح نفسه من عناء السفر ، ويعود من الغد بينما كان أبو جعفر قد دبر قتله فلما أصبح أبو مسلم إستدعاه رسول أبى جعفر وقد أعد أبو جعفر أربعة من رجاله وأمرهم بالإختفاء وبأيديهم السلاح حتى إذا ضرب بإحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم .

فلما دخل أبو مسلم على أبى جعفر المنصور أخذوا منه السيف الذى معه وأخذ بعد ذلك المنصور يعدد له جرائمه وأخذ يعاتبه ويوبخه وأبو مسلم يعتذر ، كما عدد ذنوب منها إنتماؤه إلى بنى هاشم وقتله الدعاة وأمور مالية وحتى أمور نسائه بأخذه بعض نساء عبدالله بن على ، وعندما طال عتاب المنصور قال له أبو مسلم : " يا أمير المؤمنين مثلى لا يقال له هذا ، ولا يعدد عليه مثل هذه الذنوب بعدما فعلت ، ثم قال : دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله . " فغضب المنصور وسبه ثم صفق بيديه فخرج الحراس فقتلوه ، وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣٧ هـ / فبراير ٧٥٥ م .

وبذلك أثبت أبو جعفر أنه رجل دولة من الطراز الأول فقد تخلص من أبى مسلم الخراسانى ذو الشخصية القوية والذى بفضله قامت الدولة العباسية وكان أبو جعفر يرى أنه لا ملك أو سلطان مع بقاء أبى مسلم حيا حتى أن عيسى بن موسى وهو إبن عم المنصور عندما دخل على الخليفة بعد مقتل أبى مسلم مباشرة فسأل عنه ، فقال له المنصور

ها هو ذا فى البساط ، فقال عيسي : " إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال له المنصور : خلع الله قلبك وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ."

ورأى المنصور ضرورة مواجهة ثلاثة آلاف جندى الذين كانوا برفقة أبى مسلم ، فإستدعى أقربهم إلى أبى مسلم وإسمه أبو إسحق ، فلما دخل عليه قال : " أنت المتابع عدو الله على ما أجمع عليه ، فسكت أبو إسحق وجعل يتلفت يميناً وشمالاً خوفاً من أبى مسلم، فقال له الخليفة المنصور تكلم بما أردت فقد قتل الله الفاسق وأمر فكُشِف عنه ، فلما رآه أبو إسحق خر ساجداً لله ثم رفع رأسه و هو يقول : " الحمد لله الذى أمّنى بك اليوم . والله ما أمنته يوماً واحداً وما جئته يوماً قط إلا وقد أوصيت وتكفنت .. ثم رفع ثيابه الظاهرة فإذا تحتها ثياب كتان جدد ، فلما رأى أبو جعفر حاله رحمه وقال له: " إستقبل طاعة خليفتك واحمد الله الذى أراحك من هذا الفاسق ، ثم قال له : فرق عن هذه الجماعة " .

وقد إستتبع المنصور ذلك بإغداق الأموال على جند أبى مسلم وحصل أبو إسحق من هذه الأموال على نصيب الأسد ، فقد أعطاه المنصور مائة الف دينار و لم يعاقبه على الرغم من علمه بأنه أشار على أبى مسلم بالمضى إلى خراسان ، وقام الخليفة بتوزيع الأموال على أصحاب أبى مسلم حتى لا يثوروا عندما دعاهم بفناء القصر وفى أثناء نثر الدراهم إليهم ألقى برأس أبى مسلم فعمهم الفزع .

و مما هو جدير بالذكر أن مقتل أبى مسلم الخراسانى قد أثار إستياء الفرس ، فقد كانت القومية الفارسية تعتبر نفسها نداً للقومية العربية منذ آخر عهد الأمويين مما مهد لنصرها بقيام الخلافة العباسية على أكتافها ، وقد زاد من نفوذ هذه القومية شخصية أبى مسلم القوية وخشى الفرس أن تعود الأرستقراطية العربية إلى الإنفراد بالحكم كما كان الحال فى عصر الدولة الأموية .

وقد تمثل هذا الغضب فى ظهور فرق دينية بقصد العودة إلى عقائدهم الدينية القديمة خاصة وأن بعض الفرس فى مواطنهم الأصلية كانوا على دينهم القديم ، وقد إمتدت تلك المعارضة زمناً طويلاً هددت الدولة العباسية .

وظهر فى بلاد خراسان مغامرين قادوا حركات معارضة ضد الخلافة العباسية تحت شعار الأخذ بثار أبى مسلم ، فإنتسب بعضهم إليه ، وراجت أقوال منها أن أبا مسلم لم يمت ، وقالوا برجعته ليعيد العدل إلى الدنيا ، وذلك بجسده وليس بالحلول .

وعلى ذلك رأى أبو جعفر المنصور بما أوتيه من حزم ضرورة القضاء على تلك الحركات ، فقد خرج رجل إسمه فيروز ، وقد عُرف بسنباذ فى العام الذى قتل فيه قائده أبو مسلم سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥ م مُطالباً بدمه و ذلك فى نواحى خراسان قرب نيسابور وقد بلغ غضبه على العباسيين أن إرتد عن الإسلام وأعلن أنه يمضى إلى الحجاز ليهدم الكعبة لإنهاء حكم الدولة العباسية . وقد إلتف حول سنباذ جمع كبير من أهل الجبال وهى المنطقة الشمالية الغربية من هضبة إيران الحالية ، فإستولى على كثير من بلاد الجبال مثل الرى ونيسابور ، فأرسل إليه الخليفة العباسى قائداً إسمه محمد بن الأشعث الخزاعى على رأس جيش عظيم هزمه و قتله .

كذلك ظهرت الراوندية وهم جماعة من أهل خراسان نسبهم إلى راوند من قرى أصبهان وهى من بلاد الجبال الفارسية سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م ، وقد نادوا بأفكار الفرس القديمة مثل حلول الروح الإلهية فى أبى مسلم ، ثم فى أبى جعفر بحكم أنه قاتل أبى مسلم ، فلما سجن أبو جعفر رؤساء لهم ، حاصروه فى قصره فى الهاشمية بجوار الكوفة ، وحاولوا قتله إلا أن معن بن زائدة أسرع إلى تفريق جمعهم وتمكن من هزيمتهم حتى لقبه المنصور بلقب أسد الرجال .

وفى سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ظهرت حركة الأستاذ سيس فى سجستان وتقـع فى وسط الهضبة الإيرانية للإنتقام لمقتل أبى مسلم ونادى بالمساواة كما إدعى النبوة ، فتجمـع حوله ما يقرب من ثلثمائة ألف مقاتل ، إستولى بهم على كثير من بلاد خراسان ، فأرسـل الخليفة المنصور جيشاً بقيادة إبنه المهدى وقائداً إسمه خازم بن خزيمة وتمكن من قتله وقتـل سبعين ألفاً وأسر أربعة عشر ألفاً ضُربت أعناقهم ، وبذلك إستطاع الخليفـة العباسـى القضاء على الحركات الفارسية الدينية بعد مقتل أبى مسلم وبذلك إستطاع ايضاً أن يعيـد بلاد خراسان فى حوزة الدولة العباسية .

إعتقد الشيعة العلويون أن العباسيين خدعوهم وإغتصبوا الخلافة منهم ، شأنهم شـأن الأمويين فقاموا بثورات كثيرة أولها ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علـى ابن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية لأنه كان يحب الخير أو لزهده ونسكه .

ومن الأسباب التى شجعت محمد النفس الزكية على الثورة ما ذكره المؤرخـون أن الدولة الأموية لما إضطربت أحوالها بعد مقتل الوليد بن يزيد إجتمع بنو هاشم فى موسـم الحج بمكة ، ورأوا أنه لا صلاح لهذه الأمة إلا إذا وُلى أمرها رجل من آل البيت فبـايعوا سراً خليفة من بينهم وكان الذى بويع هو محمد النفس الزكية ، وممن بايعه فى هذا المجلـس إبراهيم الإمام ، وأبو عبد الله السفاح ، والمنصور ، وعبد الله بن الحسن بن الحسـن بـن على بن أبى طالب شيخ الطالبيين . لكن العباسيين نقضوا هذا العهد ، وعملوا على نقـل الخلافة إليهم ، لذلك رفض محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم مبايعة أبى العبـاس ومـن بعده أخيه جعفر . فقد كان محمد النفس الزكية يرى فى نفسه أنه الوارث الروحى والدينى والسياسى للنبى صلى الله عليه وسلم ، فعُرف لشيعته بالمهدى دلالة على إمامته وهو مـا كان أُطلق من قبل على أئمة العلويين ، ويبدو أن الناس تفاءلوا بإسمه " محمد بن عبد الله " على إسم النبى صلى الله عليه وسلم .

وإلى جانب ذلك فقد كان محمد النفس الزكية يتزعم فرقة الزيدية على أساس أنـــه الإمام الأفضل والتى ساقت الإمامة من علىّ إلى الحسين ، ثم الحسن ، ثم إلى زين العــابدين ثم إلى زيد بن على صاحب المذهب الزيدى ، ثم إبنه يحيى ، ثم إلى محمد النفس الزكيـــة ، وقد قامت تلك الفرقة بنشاط كبير ضد الأمويين لا سيما زيد سنة ١٢٠ هــــ / ٧٣٨ م وإبنه يحيى سنة ١٢٥ هــ / ٧٤٣ م ، فلما قامت الخلافة العباسية إنبعثت الروح الزيديـــة من جديد من صفوف العلويين ممثلين فى محمد النفس الزكية وإنضم عيسى وحسين إبنـــا زيد بن علىّ فى ثورته ضد أبى جعفر المنصور وقد أثار ذلك عجب الأخير فكان يقـــول : " واعجباً لخروج إبنى زيد بن على وقد قتلنا قاتل أبيهما كما قتله ، وصلبناه ، وأحرقنـــاه كما أحرقه " .

وعلى أية حال فعندما وُلى أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ هــ / ٧٥٤ م تتبـع أخبار محمد النفس الزكية الذى بايعه أهل المدينة ، وعمدا إلى التخفى ، وتشير الروايـــات التاريخية إلى أن المنصور كان يسأل بنى هاشم رجلاً رجلاً عن محمد فيقولون له : " قـــد علم أنك قد عرفته بطلب هذا الشأن ، فهو يخافك على نفسه .. " . ولما قـــدم الخليفـــة المنصور إلى المدينة للحج للمرة الأولى سنة ١٤٠ هــ / ٧٥٧ م ، أرسل فى طلب أبيه عبد الله بن الحسن وسأله أن يحضر إبنه محمداً ، فاستشار عبد الله سليمان بن عبد الله بن علـــى إبن عبد الله بن عباس (عم المنصور) فى هذا الأمر ، قائلاً له : " يا أخى بيننا من الرحـــم والصهر ما تعلم فما ترى ؟ " فقال سليمان : " والله لكأننى أنظر إلى عبد الله بن على حين حال الستر بيننا وبينه ، وهو يشير إلينا : هذا هو الذى فعلتم بى ، فلو كان عافياً عفا عـــن عمه " ، فقبل عبد الله رأى سليمان ، وعلم أنه صدقه ، فلم يظهر إبنه فكان غياب محمـــد يقض مضجع أبى جعفر ، وفى سبيل ذلك إستخدم كل حيلة لإظهاره كذلك إضطـــر إلى تغيير ولاة الحجاز بسبب أنهم لم يتمكنوا من معرفة مكان النفس الزكية . فقد أمر المنصور سنة ١٤١ هــ / ٧٥٨ م والى المدينة بعزل زياد بن عبد الله الحارثى عندما عجـــز عـــن القبض على محمد النفس الزكية وولى المنصور مكانه محمد بن خالد القسرى

فعجز هو الآخر عن الإطلاع بهذه المهمة فعزله سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م وولى مكانه رباح بن عثمان المرى .

وكان رباح شديد الوطأة على أهل المدينة فهدد بعظائم الأمور إذا لم يظهروا النفس الزكية ، وكان يقول لهم : " أنا الأفعى ، المبيد خضرائكم ، المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب " . ولكن أهل المدينة لم يكونوا يخافونه ويرمونه بالحصى .

لم ينجح رباح فى العثور على محمد وأخيه ووقتئذ أمره المنصور بأن يقبض على بنى الحسن جميعهم ، ولما حج المنصور فى سنة ١٤٤ هـ أرسل إليهم وهم فى الحبس يطلب منهم أن يدفعوا إليه محمداً وإبراهيم فلم يلق منهم إستجابة ، فلما توجه المنصور إلى الربذة أمر رباح أن يرسل إليه أبناء الحسن ، فأخرجوا من المدينة مقيدين بالسلاسل وكان معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان أخاً لعبد الله بن الحسن من أمه فاطمة بنت الحسين .

ويبدو أن رباح كان يتوجس من إبن عفان فقد قال للمنصور : " يا أمير المؤمنين ، أما أهل خراسان فشيعتك ، وأما أهل العراق فشيعة آل أبى طالب ، وأهل الشام فوالله ما علىّ عندهم إلا كافر ، ولكن محمد بن عبد الله العثمانى لو دعا أهل الشام ما تخلف منهم أحد . " فوقعت فى نفس المنصور فأمر فأُخذ معهم .

بدأ المنصور بمحمد بن عبد الله العثمانى فعذبه حتى يدفعه إلى الإقرار بمكان النفس الزكية وأخوه إبراهيم ، ثم قتله وأرسل رأسه إلى خراسان ومعها من يقسم للناس أنها رأس محمد بن عبد الله ، وأن أمه فاطمة بنت الحسين ، لكى يفتت من عضد دعاة الشيعة عندما أرسل إليه والى خراسان يخبره بأن أهلها تترقب ظهور محمد بن عبد الله ، ثم لم يلبث أن أنزل المنصور بقية الحسنيين فى قصر شرقى الكوفة فقتل منهم محمد بن الحسن حيث أمر

ببناء إسطوانة عليه وهو حى ، وقتل أيضاً أبوه إبراهيم بن الحسن ، ثم عبد الله إبن الحسن، وقد وُجد بعد موت المنصور فى خزائن له بعض جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم وكان فيهم أطفال ورجال وشباب وشيوخ . وقتل أبو جعفر بعض أئمة الزيدية و لم ينج من مذبحة الحسينيين هذه سوى سليمان وعبد الله إبنى داود بن الحسن بن على ، وإسحاق وإسماعيل إبنى إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، وجعفر إبن الحسن . فكانت هذه المذبحة فى نظر الشيعة لاتقل عما فعله يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بالحسين وآله فى كربلاء .

وفى جمادى الآخر سنة ١٤٥ هـ / سبتمبر ٧٦٢ م ظهر محمد النفس الزكية بالمدينة فإلتف حوله عدد كبير من الناس ، وتمكن من الإستيلاء على المدينة المنورة ، ثم إستولى بعد ذلك على مكة ، كما إستولى أخوه إبراهيم على البصرة ، ثم جاءته بيعة أهل خراسان ومصر والشام ، وإن بقى ولاة العباسيين يسيطرون عليها ، كما أن والى السند أعلن مبايعة محمد النفس الزكية .

وهنا يجب أن ننوه إلى أن المنصور وقتئذ كان منشغلاً ببناء بغداد ، فأمر بوقف البناء وتوجه إلى مدينة الكوفة ، وأمر بإغلاق أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ، ولا يفد إليها وافد ، لقربها من الحجاز ولتشيع أهلها ، ولتخوف المنصور من إنضمام أهلها إلى النفس الزكية .

ويلاحظ أن المنصور أرسل إلى محمد رسالة يحثه فيها على أن يتراجع عن خروجه على أن يؤمنه هو وأهل بيته ومن إتبعهم على دمائهم وأموالهم ، وأن يعطيه ألف ألف درهم وأن يسامحه فيما أصاب من دم أو مال ، ويطلق المسجونين من أهل بيته ، ولكن محمد النفس الزكية رفض أمان المنصور ، فرد محمد على أبى جعفر برسالة وصفه فيها

بالطاغية ، وبأنه فرعون علا فى الأرض ، وقال له : " أى أمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة الذى قتلته ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبى مسلم ؟ " .

ولما لم يستجب محمد النفس الزكية للمنصور ، عزم الأخير على التوجه إليه بنفسه لإخضاعه بالقوة ، إلا أنه تراجع خشية ترك العراق بعدما علم بوصول إبراهيم إلى البصرة فأرسل إليه ولى عهده وإبن أخيه عيسى بن موسى فى جيش كثيف من الخراسانيين ، ومعه حميد بن قحطبة ، كما كتب أبو جعفر إلى مصر يطلب أن تقطع الميرة التى تصل منها إلى الحجاز .

وقد حرص المنصور عندما توجه عيسى إلى المدينة لقتال محمد بأن يقوم الأخير بدعوة أهلها إلى الكف عن الثورة فقال لهم : " إن الله قد حرّم دماء بعضنا على بعض ، فهلموا إلى الأمان ، فمن قام تحت رايتنا فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن خرج من المدينة فهو آمن " . وتشير الروايات إلى أن المنصور قد طلب من عيسى أن يدعو بخروج بنى طالب جميعاً لإستقباله ، ومن أبى صودرت أمواله .

وهنا نلاحظ أن الخليفة المنصور أراد أن يحمل الناس على الإنفضاض من حول محمد النفس الزكية عندما يرون أهل بيته يستقبلون الجيش العباسى .

وأخيراً دارت الحرب بين عيسى بن موسى ومحمد النفس الزكية وقد حفر الأخير الخندق ذاته الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم إحتفره من قبل يوم الأحزاب ، ويبدو أن النفس الزكية أراد من حفر الخندق مطاولة العباسيين حتى يخرج إبراهيم بالبصرة ويفتح عليهم جبهة جديدة تخفف من ضغطهم على المدينة .

بدأ عيسى بمحاصرة المدينة ثم وضع جنده المعابر على الخندق ، ودخلوا المدينة قاعدة ثورة النفس الزكية ، حينئذ أدرك محمد الهزيمة فخيّر أصحابه بين المقام معه أو الإنصراف عنه ، فخرج كثير من أهل المدينة إلى الجبال وبقى فى نحو ثلثمائة رجل ، وقام رجال عيسى بن موسى بقتل كل من كان معه من الرجال ، وعندما وقع محمد جريحاً وجعل يدفع جند عيسى عن نفسه حينما تجمعوا حوله قائلاً لهم : " ويحكم إبن نبيكم مجرح مظلوم !! " ولكن إبن قحطبة قتله وإحتز رأسه و بعث بها إلى الأقطار لتجوب فيها ، فكان قتله فى يوم ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ / فبراير ٧٦٣ م وذلك فى موضع داخل المدينة يقال له أحجار الزيت ، فعرف محمد بقتيل أحجار الزيت ، وقد إستمرت ثورته شهرين .

ويلاحظ أن السبب فى هزيمة محمد النفس الزكية هو إختياره الحجاز حيث لا مال ولا رجال ، إذ يكفى منع الميرة عنه فضلاً عن إنقسام العلويين بين حسنى وحسينى ، فكثيراً ما إتهم عبد الله بن الحسن والد محمد الإمام جعفر الصادق بأنه ينفس عليه وعلى إبنه محمد وهذا الإنقسام لم يمكنهم من الوقوف صفاً واحداً وراء ثورة محمد حتى يذكر بعض المؤرخين أنها كانت ثورة حسنية لتخلف معظم أبناء الحسين عن مؤازرتها .

وتشير بعض الروايات إلى أن سبب هزيمة محمد ما قامت به أسماء بنت عبدا الله بنت عبيد لله بن عباس وكانت بينها وبين محمد عداوة كبيرة فأذاعت بين رجال النفس الزكية أخبار هزيمته ورفعت خمار أسود على منارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعركة دائرة ، فظن رجال النفس الزكية أن المدينة قد اقتحمت فإنهزموا بسبب ذلك .

ودار قتال مرير ، ودارت الدائرة على جيش العباسيين فى بادىء الأمر وواصل إبراهيم زحفه حتى إقترب من الكوفة ، فقرر المنصور الخروج من الكوفة إلى بغداد حتى تمكن عيسى بن موسى فى نهاية الأمر من هزيمة إبراهيم وقتله حميد بن قحطبة وحز رأسه

التى أُرسلت إلى المنصور فى ترس لتجوب الولايات مثل رأس أخيه محمد . وكان قتلـــه فى يوم الإثنين ٢٤ من ذى الحجة سنة ١٤٥ هـــ / مارس ٧٦٣ م فعرف بقتيـــل بـــاخمرا . وقُتل فى هذه المعركة الكثير من أفراد البيت العلوى ، كما قُبض على كثير منهم وحبسهم المنصور فى سرداب بالقرب من الكوفة ، و لم يسمح المنصور بأى ثورة علويـــة فـــأخذ فى تتبعهم فى أرجاء دولته وبذلك فشلت الثورة العلوية الثانية .

المنصور و دولة الأمويين فى الأندلس :

أظهر المنصور عدائه لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبـــد الرحمن الداخل والذى أسس دولة الأمويين فى الأندلس سنة ١٣٨ هـــ / ٧٦٣ م ، فقـــد أرسل المنصور أحد قواده وهو العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـــ / ٧٦٣ م وأمره بالقضـــاء على عبد الرحمن ، فعمل العلاء على أخذ الدعوة سراً لأبى جعفر وتجمع حوله عدد كبـــير خاصة من اليمنيين لكراهيتهم لعبد الرحمن الداخل لميله إلى المضرية ، فقام العلاء بثورتـــه فى مدينة باجة وإستطاع عبد الرحمن القضاء عليها وقتل العلاء وأرسل رأسه وراية العباســـيين السوداء ورءوس بعض قادة العلاء فى جوالين إلى المنصور وكان يحج وعندمـــا شـــاهدها إشتد فزعه وقال : " الحمد لله على أن كان يفصل بينى وبين هذا الرجل بحـــر" ثم لقبـــه بصقر قريش .

بناء بغداد :

بعد أن تمكن المنصور من القضاء على ثورة عمه عبد الله بن على ثم القضاء علـــى أبى مسلم وثورتى النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، قرر المنصور بناء عاصمة لدولته ، وخرج بنفسه يرتاد أنحاء العراق لإختيار المكان الصالح لبناء هذه العاصمة ، وقد وقع إختياره على

المكان الذى بنى عليه مدينة بغداد ، فقال : " ما رأيت موضعاً أصلح لبناء مدينة من هـذا الموضع بين دجلة والفرات .. " وهى تتوسط بين أجزاء العراق وبين الطرق البرية والمائية المؤدية إلى الشام ومصر والجزيرة والهند .

ومن الناحية الدفاعية فقد توافرت لبغداد الحماية الطبيعية والدفاعية ، فهى بعيدة عن البحر الذى يكره العرب أن تكون مدهم عليه حتى يكونوا فى مأمن من هجمات العدو ، وتتوسط إقليم السواد الذى يتميز بكثرة المزروعات ، فضلاً عن أنها تقع على مشارف بلاد الفرس الذين قامت على أكتافهم الخلافة العباسية .

وكانت تقوم فى هذا المكان الذى بنيت عليه بغداد قرية فارسية تُقام فيها الأسواق ، وللمدينة أسماء كثيرة : فهى بغداد ويبدو أن هذا الإسم فارسى بمعنى هدية الله ، وهى الزوراء لتعنى إنحراف نهر دجلة بها ، أو لأن محراب مسجد بغداد بُنى مزوراً أى منحرفاً ، وهى مدينة المنصور على إسم الخليفة المنصور ، ومدينة دار السلام لأن وادى دجلة كان يُقال له وادى السلام أو لأن السلام من أسماء الله الحسنى .

شرع المنصور فى بناء بغداد فى ربيع الأول سنة ١٤١ هـ / يوليو ٧٥٨ م ، غير أن العمل توقف بها أثناء فتنة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ثم استؤنف بعد إخماد هذه الثورة سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٦ م .

وقد بنيت بغداد دائرية الشكل ، إذ كانت المدن المدورة معروفة للعرب والفرس ، ولذلك سميت بالمدينة المدورة ، ويقال لأن البناء المدور يكون عادة أكثر تعرضاً للشمس والهواء من أى بناء آخر . وكان يحيط بالمدينة ثلاثة أسوار : سور داخلى ، وسوران خارجيان ويحيط بالسور الخارجى خندق تجرى فيه المياه ، وفتحت فى كل سور أربعة

أبواب متساوية البعد أحدهما عن الآخر : الأول فى الجنوب الغربى ويسمى بباب الكوفة والثانى فى الجنوب الشرقى ويسمى باب البصرة ، والثالث فى الشمال الغربى ويسمى بـلب الشام ، والرابع فى الشمال الشرقى ويسمى باب خراسان وقد سماه المنصور باب الدولة .

وكان فى السورين الخارجيين بابان يسمى الباب الأول باب الفصيل ، والثانى باب المدينة ، وبين البابين دهليز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين ، وللسور الداخلى باب واحد ، فكان على من يريد الوصول إلى داخل المدينة أن يمر بخمسة أبواب وكان السور الكبير أعلى من السورين الأخيرين وأكثر سمكاً ، ويقال أن إرتفاعه كان نحو تسعين قدم ، وأن عرض قاعدته ١٠٥ أقدام ، ويقل سمكه تدريجياً إلى أن يصبح فى أعلاه ٣٧ قدماً و نصف قدم ، وأن أبواب السور الكبير كانت مرتفعة بحيث تسمح للفلوس أن يدخل حاملاً العلم أو الرمح الطويل دون أن يُميل أياً منهما .

وكان بين كل سورين مكان خال يفصل بينهما ويسمى الفصيل ، وكان وسط المدينة يسمى الرحبة ، ومساحتها ميل طولاً فى مثله عرضاً ، وكانت تقسمه شوارع أربعة يمتد كل منهما من المركز وينتهى إلى أحد الأبواب على شكل نصف قطر ، وفى مركز الدائرة بنى المنصور قصره المسمى بقصر الذهب أو قصر القبة الخضراء ، لأنه كانت تعلوه قبة كبيرة خضراء اللون وفى قمتها تمثال فارس فى يده رمح . وإلى جانب القصر المسجد الجامع وظل هذا المسجد قائماً حتى أوائل القرن الثامن الهجرى .

وقد قام على بناء بغداد عدد كبير من العمال والمهندسين من مختلف أجزاء الدولة فضلاً عن مواد البناء اللازمة من خشب وحجر وطوب وقد إستعان فى بنائها بأطلال بعض الأسوار القديمة ، وبلغت تكلفة بناء بغداد نحو ١٨ مليون دينار ، ولقد أمر المنصور ببناء مدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة سنة ١٥١ هـ / ٧٦٨ م وسميت هذه المدينة

بالرصافة ، وخصصت لسكن الجند وقد أصبحت الرصافة مقراً لولى العهد وإتخذها الخلفاء مقراً لهم فزاد عمرانها .

العلاقات الخارجية:

عادت الحرب بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية فى عهد الخليفة أبى جعفر ، فقد غزت قوات قسطنطين الخامس بلاد الشام سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م وإستولت قوات قسطنطين على ملطية وخربت حصونها ، لكن المسلمون تمكنوا من إستردادها فى السنة التالية ، وكانت ملطية قد فُتحت فى عصر الخليفة عثمان بن عفان على يد معاوية بن أبى سفيان ثم أصبحت طريقاً للصوائف ضد الدولة البيزنطية ، وقد شكل سقوط ملطية فى أيدى البيزنطيين خطراً داهماً على الدولة العباسية ، لأن سقوطها جعل ثغور بلاد الجزيرة مكشوفاً أمام قسطنطين الخامس الذى تمكن من الإستيلاء على قاليقلا مركز أرمينيا فدخلها بمساعدة الأرمن ، وكانت أرمينيا من أهم ولايات الدولة العباسية ، ومن ثم عمل جاهداً على التصدى لإعتداءات جيوش الدولة البيزنطية وإستعادة الثغور الإسلامية التى إستولت عليها .

ففى سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ م أرسل الخليفة المنصور أخاه العباس بن محمد وعمه صالح بن على فى جيش قوامه أربعين ألفاً لإستعادة ملطية التى سقطت فى يد المسلمين سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م ومن ثم إعتنى المنصور بتحصين وإعادة بناء ملطية كما حصّن الحصون التى إستعادها المسلمون من البيزنطيين مثل حصن قاليقلا .

حقاً أن المنصور قد إستعاد الحصون التى إستولى عليها البيزنطيون ، لكنه عمل على إنشاء الرُبط وقد فتح باب الجهاد لمن يرغب فيه من الموالى ، والرباط أشبه بمدينة عسكرية

يوجد فيها البيوت والإسطبلات والحصون ، كما أقطع الجند الوزارع وجعل لهم القضاة .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة المنصور قد أدخل عنصراً جديداً في جيش الدولة العباسية وهم الجند المرتزقة الذين تدفع لهم الدولة أجراً ، كذلك قام الخليفة المنصور بفداء أسرى المسلمين فكان يعطى عشرة رجال من البيزنطيين مقابل رجل من المسلمين .

وقد برز عدداً من قوات المنصور فى حملات الصوائف مثل مالك بن عبد الله الذى سُمى بملك الصوائف لكثرة ما غنم من البيزنطيين ، ويقال أن الحسن بن قحطبة كان يقود جيشاً قُدر بمائة ألف حتى أن إمبراطور الدولة البيزنطية أحجم عن لقائه وقد إشترك بعض أقرباء المنصور فى حرب الثغور مثل صالح بن على وأخاه عيسى بن على وأم عيسى ولباب وهما أختا صالح بن على كذلك شارك بعض أفراد البيت العلوى فى حرب الدولة البيزنطية مثل عبد الوهاب ومحمد إبنا إبراهيم بن محمد بن على الذى عُرف للدعاة بالإمام ، ولا شك أن تلك الصوائف كانت تتوغل إلى عُمق أرض الدولة البيزنطية كما حدث فى عامى ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م و ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م ، حيث اضطر إمبراطور الدولة البيزنطية قسطنطين الخامس إلى طلب الصلح سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٣ م نظير تقديم الجزية للخليفة المنصور الذى رفض الصلح وإستمرت الغزوات الإسلامية لأراضى الدولة البيزنطية حتى وفاة المنصور فى ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ / أكتوبر ٧٧٥ م .

أما العلاقات العباسية الأندلسية فى عهد المنصور ، فقد إستطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أن يفر من أيدى رجال الدولة العباسية ، وتمكن من دخول قرطبة عاصمة الأندلس فى ذى الحجة ١٣٨ هـ / مايو ٧٥٦ م ، وقد تمكن من إعادة الحكم الأموى إلى الأندلس الذى إستمر أربعة قرون وقد إكتفى بلقب الأمير ، ومنذ أن قامت الخلافة العباسية وهى تسعى إلى ضم بلاد الأندلس إلى الدولة العباسية وقد عمل أبو جعفر المنصور على تقويض حكم عبد الرحمن بن معاوية ، أو ما يُعرف بعبد الرحمن

الداخل ، فأرسل إلى العلاء بن مغيث سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م وأمره بإثارة العرب ضد عبد الرحمن الداخل فإنضم إليه عدد كبير من القبائل اليمنية فى بلاد الأندلس لكراهيتهم لعبد الرحمن وذلك لميله للمضرية ، وقد دعا العلاء بن مغيث سراً للخليفة المنصور وتمكن من الإستيلاء على مدينة باجة ، لكن الأمير الأموى عبد الرحمن تمكن من القضاء على ثورة بن مغيث وقام بجز رأسه .

الخوارج فى عهده :

وفى وقت المنصور ظهر الخوارج فى جنوب شرق الجزيرة العربية بقيادة مِلبد بن حرملة الشيبانى وعاثوا فساداً بنواحى الجزيرة ، فأرسل المنصور إليهم يزيد بن حاتم المهلبى غير أنه هُزم ، فجهز المنصور جيشاً آخر بقيادة مهلهل بن صفوان إلا أنه إنهزم هو الآخر حتى إستطاع قائد المنصور خازم بن خزيمة هزيمة الخوارج وقتل ملبد وثلثمائة من أتباعه كذلك خرج فى الموصل الخوارج الصفارية بقيادة رجل إسمه حسان سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ، وأراد المنصور أن يفتك بأهل الموصل لمساندتهم له ، إلا أن أبا حنيفة لم يقبل أن يفتيه فى ذلك فكف عنهم .

كذلك ثار الخوارج فى سجستان ، وهى ناحية كبيرة من بلاد إيران ، فكان أول إنتفاض لخوارجها سنة ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م ثم عادوا للفتنة عام ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م ، وفى بلاد المغرب قام الخوارج بفتن شديدة مهدت لإنفصال بلاد المغرب عن الخلافة ، ففى عهد المنصور تطلع إلى إخضاع أفريقيا وبلاد المغرب والقضاء على نشاط الخوارج ، فقد إستقل بأفريقيا عبد الرحمن بن حبيب وبالرغم من أنه اعلن إعترافه بالخلافة العباسية إلا أنه بعد ذلك أعلن خلعه المنصور ومن ثم حرض المنصور ضده أخاه إلياس بن حبيب فقتله سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥ م .

وكانت الخوارج الأباضية قد تمكنوا من الإستيلاء على القيروان بقيادة أبو الخطـــاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى سنة ١٤١ هـــ / ٧٥٨ م وإمتدت دولتـــه إلى طرابلـــس فإستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسى وهو من علماء الأباضية ، وعـــاد أبو الخطاب إلى طرابلس حينما علم بقدوم محمد بن الأشعث الذى أرسله المنصور للقضـاء على الخوارج الأباضية حيث تمكن جيش بن الأشعث والى مصر من هزيمة قـــوات أبـــو الخطاب سنة ١٤٤ هـــ / ٧٦١ م وتمكن من قتله وأحتزت رأسه وأُرسلت إلى المنصـــور وقد إستتبع ذلك إستيلاء ابن الأشعث على طرابلس و القيروان .

الا أن الأباضية عادت للظهور على يد أبو حاتم يعقوب بن حبيب الذى خلف أبـــا الخطاب فى إمامة الأباضية وحالفه زعيم الخوارج الصفارية المسمى أباقرة لمحاربة العـــرب ، فأرسل المنصور قائده عمر بن حفص المهلبى المعروف بهزار مَرْد " كلمة فارسية أى الرجـل بألف رجل " ، لكن إبن المهلبى قُتل فى سنة ١٥٤ هـــ / ٧٧١ م بيد الخـــوارج الذيـــن تمكنوا بقيادة أبو حاتم الأباضى من دخول القيروان سنة ١٥٥ هـــــ / ٧٧٢ م وأخـــرج العرب منها .

ولكن المنصور جهز جيشاً عظيماً قُدر بنحو ستون ألفاً وإنضم إليه عـــرب إفريقيـــة وطرابلس وبعض البربر بقيادة يزيد بن حاتم المهلبى وتمكن جيش المنصور مـــن هزيمـــة أبى حاتم الخارجى وقتله ثم دخول القيروان فى جمادى الآخر سنة١٥٥ هـــ / ٧٧٢ م ، وظـــل يزيد بن حاتم والياً على أفريقيا من سنة ١٥٥ هـــ / ٧٧٢ م إلى سنة ١٧٠ هـــ / ٧٨٦م نعمت فيها أفريقيا بإستقرار .

وفى عهد المنصور فُتحت لأول مرة بلاد طبرستان التى تقع جنوب بحـــر قزويـــن ، وإعتبرت بلاد طبرستان من أشد البلاد مقاومة للعرب ، ويبدو أن إسمها مأخوذ من الطـــبر وهى الفؤوس التى كانت تستخدم كأسلحة فى العصور الوسطى ، فكانت جميع المحاولات

لفتحها تبوء بالفشل حتى ضُرب المثل بغدرها فى عهد الأمويين حينما أُرسل إليـــها قـــائد أموى إسمه مصقلة على رأس جيش عظيم ، فلم يرجع هو أو أى فرد فى جيشـــه فكـــان الناس يقولون : " حتى يرجع مصقلة من طبرستان " ، ولذلك قبل العرب مصالحتها علـــى الشيء اليسير من المال لصعوبة مسالكها ، وظل الحال كذلك إلى عهد المنصور الذى وجه جيشاً كبيراً سنة ١٤١ هـــ / ٧٥٨ م بقيادة خازم بن خزيمة الذى فتح معظم طبرســتان ، فإضطر الأصبُهبذ صاحبها وهو من بنى دابويه إلى الفرار إلى جيلان المجاورة لها من جهـــة الغرب .

وفى سنة ١٤٢ هـــ / ٧٥٩ م تمكن الأصبُهبذ من العودة إلى طبرستان وقتل معظـــم المسلمين ، فأعاد المنصور قائده خازم إلى مهاجمة طبرستان وتمكن أحد رجاله وإسمه أبـــو الخطيب عن طريق الحيلة من دخول قلعة الأصبُهبذ الذى مص خاتماً فيه سم فقتل نفســـه وكان ذلك فى سنة ١٤٣ هـــ / ٧٦٠ م و ترتب على فتح طبرستان نشر الإسلام فيـــها وفيما جاورها من البلدان لا سيما بلاد الديلم .

كذلك حافظ المنصور على فتوحات المسلمين فى بلاد السند شرقى إيران وولى عليها قائده عمر بن حفص المهلبى ، كذلك عمد المنصور إلى فتح بلاد كشمير المجاورة للتبـــت وبلاد الترك وهى التى فتحها محمد بن القاسم الثقفى فى عهد الأمويين مما مهد للمســـلمين سيطرقم على بلاد واسعة فى بلاد الهند .

الإدارة فى عهد المنصور :

يذكر المؤرخون أن الخليفة المنصور قد ركز نظرته فى الإدارة لدولته فى قوله : " مـــا كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أحسن منهم . قيـــل يا

أمير المؤمنين : من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة تداعى ، أما أحدهم فقاضٍ لا تـــأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خـراج يستقضى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها فى غنى ، والرابع .. ثم عض على إصبعه ثـلاث مرات يقول فى كل مرة : آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين . قال : صاحب بريـــد يكتب خبر هؤلاء على الصحة " .

وذكر المؤرخون أن المنصور حاول جهده أن يطبق هذه النظريـــة فى دولتـــه حـــتى أصبحت الدولة العباسية تسير على نهج المنصور فى الإدارة ، فكان يسعى إلى تعيين ولاتـــه من الأكفاء وإستعان فى ذلك على أهل بيته ومواليه المقربين له ، وتشير الوايـــات إلى أن المنصوركان يراقب وهو فى بغداد الإدارة فى الولايات المختلفة عن طريق البريد ، وأن ولاة البريد فى أقطار الدولة العباسية كانوا يكتبون إلى المنصور كل يوم بأسعار الطعام الأساسـية وبكل ما يقضى به القاضى فى بلادهم وعمل الوالى إلى غير ذلك .

الثقافة فى عهد المنصور :

مما لا شك فيه أن المنصور قد حرص على الإهتمام بالثقافة فكان يعقد حلقة لتدريس الفقه فى مسجد الكوفة ، وعلى رأسهم القاضى أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشـــيبانى وقد كانا على المذهب الحنفى .

كما إهتم المنصور بالشعر و الشعراء ، ومن الشعراء الذين برزوا فى عهد المنصـــــور الشاعر بشار بن برد ، ومروان بن أبى حفصة ، وأبو إسحق إسمـــاعيل المعـــروف بـــأبى العتاهة، وأشجع بن عمرو السلمى ، وأبو دلامة .

وفى أوائل ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ / أكتوبر ٧٧٥ م ، توفى المنصور بعد أن إمتد حكمه للدولة العباسية إلى إثنين وعشرين سنة ، أرسى فيه أركان الدولة العباسية ، فقضى على فتن الطامحين ، ووضع حداً لفتن العلويين ، وأسس مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

محمد المهدى " ١٥٨ - ١٦٩هـ "

بويع لمحمد المهدى بالله بن جعفر المنصور بالخلافة بعد وفاة أبيه الذى أجبر عيسى بن موسى سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م بالتنازل عن حقه فى خلافة المسلمين و عوضه عن ذلك مالاً كثيراً .

والواقع أن عصر المهدى يعتبر متمماً لسياسة أبيه المنصور ، وقد إستكمل بناء بغداد الشرقية أو الرصافة فأصبحت عاصمة الدولة العباسية ، كما أدخل دواوين جديدة مثل ديوان الأزمة لمراجعة الحسابات المالية ، وأقام البريد بين بغداد وجُرجان ، وبين بغداد والمدينة ومكة واليمن .

وقد إهتم المهدى بالرعية ، فإهتم بالنظر فى المظالم ، كذلك إهتم بالمرضى فأنشأ دور للمرضى فى بعض أقاليم الدولة العباسية ، وقد إهتم المهدى أيضاً بالغناء والموسيقى فكان يجتمع فى بلاطه المغنيين والعازفين ومن أبرزهم إبراهيم الموصلى .

أما بالنسبة لولاية العهد فقد أجبر المهدى عيسى بن موسى على خلع نفسه من ولاية العهد ونقلها إلى ولديه موسى الهادى وهارون الرشيد فى مقابل مبلغاً كبيراً من المال ثم ما لبث أن توفى سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م . لكن المهدى كان على عكس السفاح والمنصور، فقد أحاط نفسه بالعجم حتى أصبحوا يتولون الوزارة والجيش ، ففوض المهدى تدبير الخلافة لأبى عبيد الله معاوية سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م ومن بعده يعقوب بن داود ابن طَهمان سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م وكلاهما من الموالى ، فكان الأول فى صف حركة الأستاذ سيس وكان الثانى كاتباً لإبراهيم الإمام .

ويلاحظ أن ظهور نفوذ العجم فى دولة المهدى أدى إلى ظهور تيار عربى أراد أن يستميل الخليفة إليه ، وكان من بينهم رجالاً من أهل الأدب والعلم ، مما أدى إلى وجود صراع بين العرب والعجم من رجال الدولة العباسية للإستئثار بالمهدى ، ومن ثم ظهرت الشعوبية وهى حركة أدبية وأصبح العجم يتفاخرون بحضارتهم ويفضلون أنفسهم على العرب ، وعلى الرغم من ذلك فلا يجب أن نبالغ فى إيجاد تفرقة كبيرة بين العرب والعجم الذين أصبحوا مختلطين بالنسب العربى .

ومما لا شك فيه أن إزدياد نفوذ العجم فى عهد المهدى أدى إلى ظهور بعض فكرهم الدينى القديم فى معتقداتهم الإسلامية وبالتالى ظهور الإلحاد وبدع غريبة عن الإسلام . وقد عُرف الإلحاد بلفظ الزندقة وسُمى الملحد زنديقاً ، وقد ظهرت هذه الزندقة من أيام الأمويين سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م ، ولفظ الزندقة كذلك يُطلق على من يتبع الزند وهو الشرح لكتاب الفرس المقدس " الأفستا " والذى يسميه العرب " الأبستا " ويبدو أن الزند نوع من التفسير فى تأويل ومعان باطنة ، وقد تكون لفظة الزندقة من كلمة زاديق الأرامية بمعنى المستقيم فى الدين ثم عُربت إلى زنديق .

وقد إرتبطت الزندقة بنحلتين فارسيتين كانتا مضطهدتين فى بلاد فارس قبل ظهور الإسلام ، **الأولى** : النحلة التى دعا إليها مانى (٢١٥ -٢٧٦ م) فى عهد الملك شهبور الأول (٢٤١ - ٢٧٢ م) ، وقال بقول المجوسية بالنور والظلمة ، أو الخير والشر ، ودعا إلى مقاطعة النساء وكثرة الصيام وبفرض الصلوات التى هى مسح بالماء الجارى ، وإستقبال النيّر الأعظم قائماً ، ثم سجود وقيام مع ذكر بعض التسبيحات ، كما كان مانى يؤمن بتناسخ الأرواح وأن ذات الإله تتقمص الإنسان . **أما النحلة الثانية** : فهى المزدكية نسبة إلى مزدك وظهرت فى عهد الملك قباذ الأول (٤٤٨ - ٣٥١ م) وقال بقول المجوسية بالخير و الشر ، والنور والظلمة ، ولكنه فسر الأفستا على أساس شيوعى بقصد تساوى الناس فى النساء والأملاك . وقد إنتشرت هاتين النحلتين فى بلاد فارس وقد حاربت الدولة الساسانية معتنقى النحلتين اللتين تسربتا أيضاً إلى بلاد الهند والصين ، بل فى الدولة البيزنطية .

وقد إعتبرت الدولة العباسية المزدكية والمانوية من الدعوات الهدامة ، مع أن الزندقة ظهرت فى عصر المنصور ، إلا أن المؤرخين يذكرون أن الملاحدة فى عهد المهدى ظهروا فى كل جهة ، ومن ثم تجرد المهدى لمقاومة الزنادقة فى كل مكان ، بل عمل على تأسيس "ديوان" عهد به إلى رجل سُمى " صاحب الزنادقة " للكشف عنهم ، كما أوجد لهم حبساً خاصاً حتى لا ينقلون أفكارهم إلى غيرهم .

وقد إستغلت الدولة العباسية مقاومة الزنادقة للتخلص أيضاً من أعدائها ، فمثلاً ليتخلص المهدى من وزيره أبى عبيد الله إتهم إبنه بالزندقة ، كما إتهم هارون الرشيد البرامكة للتخلص منهم .

وقد قامت للزنادقة فتنة عارمة تزعمها رجل إسمه عطاء أو حكيـــم فى خراســان ، وكان يعمل من قبل فى خدمة أبى مسلم الخراسانى ، وكان رجل أعور قصير مــن أهــل مرو، إتخذ له وجهاً من الذهب وحجب به وجهه حتى لا يُرى فسمى المقنع ، وقد إدعــى الألوهية ، وآمن بتناسخ الأرواح وإدعى أنه يظهر فى صور الأنبياء ، وقال : " الله خلــق آدم فتحول فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم فى صورة إبراهيم ، ثم إلى صــور الأنبيــاء واحداً بعد الآخر ، وأخيراً فى صورة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم فى صورة علىّ بن أبى طالب ، ثم فى أولاده ، حتى إنتقل فى صورة أبى مسلم الخراسانى ، ثم من الأخــير إليــه . وزعم أن الناس لا يطيقون رؤيته فى صورته التى هو عليها ، و من رآه إحــترق بنــوره ، وأسقط الصلاة و الصوم والزكاة والحج .

وقد حارب أهل خراسان المُقنع وحركته فإنتقل إلى بلاد ما وراء النهر وإتخــذ مــن بخارى مركزاً له ، وهى من أكبر المدن فى البلاد المسماة بالصغد الممتدة من جيحــون إلى سيحون ، وما زال أمر المُقنع يقوى ، فإنضم إليه أهل خراسان وبخارى وسمرقند وبــلاد الترك ، فإعتصموا بقلعة سَنام فى بلدة كشمير من مدن سمرقند فوجه المهدى إليــه قــائداً عربياً إسمه سعيد الحرشى الذى تمكن من هزيمة المُقنع و قتله سنة ١٦٣ هـــ / ٧٧٩ م .

وبالنسبة لعلاقة المهدى مع الدولة البيزنطية ، فقد إستمرت حملات المسلمين ضــد الدولة البيزنطية كما كان الحال فى عهد المنصور ، ففى سنة ١٥٩ هـــ / ٧٧٥ م أرســل العباس بن محمد على رأس جيش كبير فغزا أراضى الدولة البيزنطية حتى وصل إلى أنقــوة ، وتتابعت الغزوات على الروم ، فلما رأى حاكم أزمير ميخائيل لاخا نودراكون خطــورة هجمات المسلمين قاد جيشاً قُدر عدده بنحو ثمانين ألفاً سنة ١٦١ هـــ / ٧٧٨ م ووصل إلى حصن (الحدث) الواقع عند قاعدة جبال طوروس فإستولى عليه ثم توجه إلى حصــن (مَرْعش) فى جنوبه فأحرقه وقتل عدداً كبيراً من المسلمين سنة ١٦٢ هــــ / ٧٧٨ م ، لكن الحسن بن قحطبة تمكن من إسترداد حصن الحدث فى نفس السنة وبناء قلعة للدفاع

عنه على جبل الأحيدب ، وأصبح إسم الحصن المحمدية أو المهدية نسبة إلى الخليفة العباسى محمد المهدى .

إستمرت الصوائف والشواتى على أرض الدولة البيزنطية ، فقاد المهدى بنفسه حملة سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩م ومعه إبن هارون الرشيد إلى أن وصلا إلى طرسوس ثم أمر المهدى هارون بمواصلة الغزو فى أراضى الدولة البيزنطية عبر نهر جيحان ففتح المسلمون أراضى كثيرة أشهرها سمالو ، وفى سنة ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م وصل هارون إلى خليج القسطنطينية عند أنقرة وإفتتح عدة حصون أشهرها حصن ماجدة .

توفى المهدى فى شهر المحرم سنة ١٦٩ هـ / أغسطس ٧٨٥ م بعد أن حكم الدولة العباسية أكثر من عشر سنوات .

موسى الهادى " ١٦٩ - ١٧٠هـ "

تولى موسى الهادى الخلافة فى يوم الخميس ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ/٤أغسطس ٧٨٥ م بعد وفاة أبيه ، وقد عمل الهادى منذ أيامه الأولى على نقل ولاية العهد من أخيه هارون الرشيد إلى إبنه جعفر وهو طفل صغير لم يبلغ الحلم ، وقد نصحه يحيى بن خالد البرمكى بالعدول عن هذا الأمر قائلاً : " يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعد ذلك ، كان ذلك أوكد للبيعة " . فقال : " صدقت و نصحت " .

ولعل من أهم ما حدث فى خلافة الهادى هو العودة إلى معاداة العلويين ، فقد إزدادت شوكتهم فى عهد أبيه المهدى الذى عمل على مصالحتهم فأغدق عليهم العطاء ، وترتب على ذلك أن عادت فرقة الزيدية الشيعية إلى الظهور بعد أن اضطهدت فى عهد المنصور ، وقد بلغ من قوة نفوذها أن يعقوب بن داود أحد رجال الزيدية ، وكان كاتباً لإبراهيم أخى النفس الزكية ، قد تولى الوزارة فى عهد المهدى بقصد أن يستميل الشيعة إليه حتى إنه سماه أخاً فى الله ووزيراً ، ثم عزله بعد ذلك بعد أن يأس من إستمالته .

وذكر المؤرخون أن الزيدية إنتهزوا هذه الفرصة فى عهد المهدى بالدعوة إلى أحد أفراد أسرة عبد الله بن الحسن وهو الحسين بن علىّ الذى أعتبر من سادة العلويين ، ومع ذلك فتشير بعض الروايات إلى أن سوء معاملة العلويين من قِبل الهادى وسلبهم كافة الإمتيازات التى منحهم إياها المهدى ، فضلاً عن أن والى العباسيين على المدينة ، عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وشهرته العمرى ، كان يعمد إلى التهجم على العلويين ، حتى انه حبس علوياً إسمه أبو الزفت إبن النفس الزكية فوضع حبلاً فى عنقه ثم ضربه بالسوط بحجة أنه كان يشرب الخمر ، فكان هذا سبباً مباشراً فى خروج الحسين بن علىّ فى موسم الحج فى ذى القعدة سنة١٦٩ هـ / ٧٨٦ م فقام الحسين وأنصاره بمهاجمة دار الإمارة التى تحصن بها العمرى ، فكسروا السجون وأخرجوا من بها ثم دخل العلويون المسجد النبوى ، " فجلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء ، وجعل الناس يأتون المسجد ، فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلّون ، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ، ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد [1] .

ويبدو من خلال الروايات التاريخية أن أهل المدينة لم يُجمعوا على مبايعة الحسين بن على وأبرز هؤلاء موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وحاول الحسين كسب ود أهل المدينة فعمد إلى تحرير العبيد الذين إنضموا إلى بيعته ، كما أغدق الأموال على الفقراء ،

ومما زاد من كثرة أشياعه ما إتصف به من نبل الأخلاق و إنفاقه الأموال علـــى النـــاس ، ويقال أن المهدى أعطاه أربعين ألف دينار ، فرقها فى الناس فى بغداد والكوفة .

على كل حال لم يتغاض الخليفة موسى الهادى عن هذه الحركة المضـــادة للدولـــة العباسية ، فأمر عمه العباس بن محمد ، الذى إشتهر فى حروب الروم ، بـــالتخلص مـــن الحسين بن على ، وكان الأخير قد خرج صوب مكة فلحقه جيش الخليفة الهادى قُـــرب مكة فى واد إسمه فخ على بعد ستة أميال من مكة فى ٨ ذى الحجة ســـنة ١٦٩ هـــ / ١١يونيه ٧٨٦ م ، فإشتبك الطرفان حيث أُطلق على جيش الحسين بن علىّ المبيضـــة ، وعلى جيش العباسيين المسودة ، فإنهزم الحسين وتفرق أشياعه من حوله ، ومع أن الحسين قد منح الأمان إذا إستسلم إلا أنه قرر القتال ، بينما أسرع أبو الزفت بالفرار ، كما فـــرّ عدد من أهل بيته منهم إدريس و يحيى من أخوة النفس الزكية ، ففـــرّ الأول إلى المغـــرب والثانى إلى بلاد الديلم .

وقد قُتل أكثر من مائة شخص حول الحسين قبل أن يُقتل بسهم رشقه نحوه أحـــد الأتراك وحُملت رأسه إلى الهادى . وقد أُعتبرت مأساة حادثة فخ بعد مأساة كربـــلاء فى فظاعتها لكثرة من قُتل فيها من آل علىّ ، وكانت سبباً فى إستمرار العداء بين العباســـين والعلويين . فقد تمكن إثنان من كبار العلويين من الفرار من هذه المذبحة ، أحدهما إدريـــس ابن عبد الله الذى فرّ إلى المغرب الأقصى حيث سيطر على فارس وأسس دولـــة علويـــة مستقلة وهى دولة الأدارسة . أما العلوى الثانى فهو أخوه يحيى بن عبد الله الذى فـــرّ إلى بلاد طبرستان وظل مختفياً ، وفى سنة ١٧٦ هـــ / ٧٩٢ م ظهر يحيى ببلاد الديلم وأعلـــن العصيان ، " وإشتدت شوكته ، وقوى أمره ، ونزع إليه الناس من الأمصـــار والكـــور ، فإغتم لذلك الرشيد " .

وإستطاع الفضل بن يحيى البرمكى أن يُقنع صاحب الديّلمْ أن يقبل يحيى بن عبد الله للصلح مع الخليفة هارون الرشيد فأقام الفضل بهذا الموضع ، وواتر كتبه على يحيى ، وكاتب صاحب الديّلمْ ، وجعل له ألف ألف درهم ، على أن يسهّل له خروج يحيى ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه على نسخة يبعث بها إليه ، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد ، فسرّه وعظم موقعه عنده ، وكتب أماناً ليحيى بن عبد الله ، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علىّ ، والعباس بن محمد ، ومحمد بن إبراهيم ، وموسى بن عيسى ومن أشبههم ، ووجّه به مع جوائز وكرامات وهدايا ، فوجّه الفضل بذلك إليه ، فقدم يحيى بن عبد الله عليه ، وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى له أرزاقاً سنية ". غير أن الرشيد لم يكن مطمئناً إلى يحيى بن عبد الله فحدد إقامته فى منزل يحيى بن خالد البرمكى ، الذى أُطلق سراحه فرحل إلى الحجاز ، وإستطاع أبناء يحيى بعد ذلك من إقامة دولة علوية ثانية فى بلاد الديلم .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن الهادى كان يميل إلى الغناء و اللهو فقرّب إليه إبراهيم الموصلى وإبنه إسحق ، كما كان الهادى يُجالس العلماء والأدباء .

أما بالنسبة لولاية العهد فقد وقع الهادى تحت تأثير بعض قواده ، فزينوا له خلع أخيه هارون الرشيد ، وتولية إبنه جعفر العهد تقرباً إليه ، وأملاً فى الحصول على العطايا ، غير أن هارون الرشيد ماطله فى ذلك بإيحاء من يحيى بن خالد البرمكى ، وكانت الخيزران أم الهادى تقف بجانب يحيى فى ضرورة الإبقاء على هارون ومن ثم أمر الهادى بألا يصحب الرشيد أحد من الحراس و لو بحربة واحدة ، فإجتنبه الناس ، وغضب من يحيى البرمكى "وبعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكفّ عنه " ثم أمر بحبسه .

أما أمه الخيزُران فقد منعها الهادى من التدخل فى شئون الدولة ، ومنعها من مقابلـــة الناس فقد قال لها : " والله لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خـــاصتى أو خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بـــابك فى كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ " .

ولكن الهادى مات فجأة سنة ١٧٠ هــ / ٧٨٦ م ووُلى بعده أخوه هارون الرشيد.

هارون الرشيد " ١٧٠ - ١٩٣ هـ "

يُعتبر هارون الرشيد من أشهر خلفاء الدولة العباسية وأكثرهم ذكـــراً ، ووصلـــت الدولة العباسية فى عهده إلى قمة إزدهارها فى شتى ميادين الحياة المختلفة ، وأصبح مجـــرد ذكر الرشيد فى العصور التى تلت عصره يشير بوضوح إلى ما كانت عليه الخلافة فى عهده من عظمة ومجد ، حتى أن المصادر العربية قد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن أخباره قـــد إمتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص ، فهو يصور أحياناً هارون بالخليفة المســـرف فى الملذات والترف وأحياناً أخرى بصورة الخليفة الورع المتدين المجاهد الذى أمضى فـــترة خلافته بل حياته بين حج وغزو ، فكان يحج عاماً ويغزو عاماً .

وفى بعض الأحيان صُور هارون الرشيد بصورة الخليفة الذى يتمتع بالدهاء والحـــذر فكان يبث جواسيسه بين الناس ليعرف أحوالهم ، وكان يتنكر فى بعض الأحيان ويمشى فى الأسواق ليعرف بنفسه أخبار الناس وما يُقال فيها .

وقد وُلى الخلافة فى يوم الجمعة فى النصف من ربيع الأول عـــام ١٧٠ هـــ / ١٤ سبتمبر ٧٨٦ م ، وله من العمر إثنين وعشرين عاماً ، وقد عهد بالخلافة من بعده ســـنة ١٧٥هـــ /٧٩١ م لإبنه محمد الأمين وكان عمره خمس سنوات ، وفى سنة ١٨٣ هـــ / ٧٩٩ م بايع للمأمون بولاية العهد بعد أخيه الأمين ، وفى سنة ١٨٩ هـــ / ٨٠٤ م بـــايع لإبنه المسمى القاسم بولاية العهد بعد المأمون .

والواقع أن عصر هارون الرشيد قد مرّ بمرحلتين . **المرحلة الأولى** : إمتدت منذ توليه الخلافة حتى سنة ١٨٧ هـــ / ٨٠٢ م و كان النفوذ فيها بيد أمه الخيزُران و البرامكـــة ، وهو التدخل الذى أراد الهادى أن يضع حداً له ، إذ يقول الطبرى : " وكانت الخـــيزُران هى الناظرة فى الأمور ، وكان يحى البرامكى يعرض عليها ويصدرُ عن رأيـــها " . ولمـــا توفيت الخيزُران سنة ١٧٣ هـــ / ٧٨٩ م بعد ثلاثة أعوام من ولاية هـــارون ، إنفـــرد البرامكة بالسلطان حتى قضى هارون على سلطانهم . **والمرحلة الثانية** : تبدأ مـــن ســـنة ١٨٧ هـــ / ٨٠٢ م وفيها إنفرد هارون بالسلطان حتى وفاته سنة ١٩٣ هـــ / ٨٠٨ م .

شهد عصر هارون الرشيد بعض المشكلات التى هزت الدولة العباسية هزاً عنيفـــاً ، نذكر منها ثورة الخوارج بالجزيرة سنة ١٧٩ هـــ / ٧٩٥ م بقيادة الوليد بـــن طريـــف الشارى ، فوجه إليه هارون جيشاً بقيادة موسى التميمى ، غير أن الخوارج تمكنـــوا مـــن هزيمته ، فأرسل هارون جيشاً آخر بقيادة معمر بن عيسى العبدى الـــذى إشـــتبك مـــع الخوارج فى عدة معارك ، إلا إنه توفى فأرسل هارون قائده يزيد الشيبانى الذى تمكن مـــن قتل الوليد الشارى و إحتز رأسه و أرسلها إلى هارون الرشيد .

كما شهدت خراسان ظهور الخوارج الأزارقة سنة ١٧٩ هـــ / ٧٩٥ م خاصـــة فى كرمان وفارس بقيادة عبد الله الأزرق . غير أن خطورتهم لم تبلغ خطـــورة الوليد بـــن

طريف. ثم يأتى قبل ذلك نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد والتى أثرت على الدولة العباسية بعد وفاة هارون الرشيد ووقوع النزاع بين ابنيه الأمين والمأمون .

أصل البرامكة :

البرامكة أسرة فارسية ، وكلمة برامكة مشتقة من كلمة برمك وهى لقب أطلق على سادن أو كاهن معبد قديم فى مدينة بلخ من مدن خراسان عند نهر جيحون . وكان هذا المعبد على هيئة الكعبة تقام فيه العبادة البوذية وله مواسم يحج إليه فيها البوذيون من مختلف الجهات كالهند والصين وفارس ، وكان هذا المعبد يسمى نوبهار وهى كلمة هندية بمعنى المعبد الجديد ، وكانت أسرة البرامكة المتولية شئون هذا المعبد ويبدو أن هذه الوظيفة كانت قاصرة على الأسر ذات الأصل العريق ، ويرجع الفرس نسب البرامكة إلى نسل ملوك الفرس المعروفون بملوك الطوائف وهم البارثيون الذين حكموا إيران قبل الساسلن ، وتشير الروايات التاريخية إلى أن هذا المعبد قد تلاشى فى أيام معاوية بن أبى سفيان سنة ٤٢هـ/٦٦٣م .

وقد عملت هذه الأسرة فى خدمة الدولة العباسية لحظة قيامها ، ويبدو أن هذه الأسرة اعتنقت الإسلام على المذهب الشيعى زمن الدولة الأموية ، وأن برمك أسلم زمن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، وكان برمك عالماً بالطب والتنجيم ، وقد عالج مسلمة بن عبد الملك .

وتشير النصوص التاريخية إلى أن خالد بن برمك هو أول من اتصل بالعباسيين ، وقد قام بدور بارز فى نشر الدعوة العباسية منذ بدايتها فانضم إلى أبى مسلم الخراسانى وحارب معه الأمويين إلى أن تم قيام الدولة العباسية ، كما شارك فى تقسيم الغنائم فى جيش قحطبة بن شبيب قائد أبى مسلم الخراسانى ، وفى عهد الخليفة السفاح ولّى ديوان الخراج وديوان

الجند ، وبعد مقتل أبى سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ، استوزره الخليفة السفاح ثم المنصور ، ويبدو أن خالد رفض أن يتلقب بلقب وزير بعد مصرع الخلال لأنه شؤم على صاحبه . وقد تولى خالد بعض الأعمال للمنصور منها طبرستان من سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م و١٤٥هـ/٧٦٩م ، فقد قضى على نفوذ المصمغان ، وأقام فيها مدينة باسم المنصورة ، والموصل التى قضى فيها على فتنة الأكراد .

كذلك لمع اسم خالد فى بناء مدينة بغداد ، ويقال أن المنصور حينما عزم على هدم إيوان كسرى بالمدائن للإستفادة من أحجاره فى بناء بغداد ، إستشار خالد البرمكى ، فأشار عليه بألا يفعل ذلك لأن بقاء هذا البناء الشامخ دليلاً على عظمة الإسلام ، فقال له المنصور : " فيك نزعة أعجمية ! " . وأصر المنصور على نقل الإيوان ، فنقل منه جزءاً ، ثم أوقف العمل فيه عندما توفرت مواد البناء من الجهات الأخرى ، ويبدو أن المنصور أراد أن يزيل أو يحطم هذا البناء المقدس لدى الفرس والذى كان يرمز إلى الديانة البوذية .

توفى خالد بن برمك سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، وقد أنجب رجلاً أعتبر أشهر شخصية فى أسرة البرامكة لما تميز به من مهارة فى الإدارة ، فقد عهد إليه المنصور حكم آذربيجان وأرمينية فى سنة ١٥٨هـ/٧٥٥م ، وفى عهد المهدى عهد إليه بأمر نفقات العسكر ، وأصبح يحيى البرمكى كل شىء عند المهدى ، حتى أسند إليه مهمة تنشئة ابنه هارون الرشيد فى سنة ١٧١هـ/٧٧٨ م .

ولما ولّى هارون والياً على المناطق العربية للدولة العباسية بالإضافة إلى آذربيجان وأرمينية ، فإن المهدى عين يحيى البرمكى على ديوان الرسائل فى سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م ، ورافق يحيى هارون الرشيد فى الحملات العباسية ضد الدولة البيزنطية .

وأصبح يحيى البرمكى معرضاً لسخط الهادى فقد حاول يحيى بالإتفاق مع الخيزران أن يجعل هارون يسبق الهادى فى ولاية العهد ، كما دافع عن حق هارون فيها فى خلافة الهادى وسجن بسببها وظل محبوساً حتى مات الهادى فأخرجه هارون الرشيد ، وكان الأخير لا يناديه إلا بقوله : " ياأبتى " .

ولما ولىّ هارون الخلافة أطلق ليحيى بن خالد يده فى كل شىء ، ففوضه الوزارة فى سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م وهى وزارة التفويض التى تستغنى عن توقيعات الخليفة على عكس وزارة التنفيذ التى يكون عمل الوزير فيها قاصراً على تنفيذ أوامر الخليفة وإلتزام رأيه. وهذا الوزير وسيط بين الرعية والخليفة والولاة ، ويقال أن هارون قال ليحيى فى هذا الصدد : " قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى " .

وقد استعان يحيى بابنائه فى حكم الدولة العباسية فولى الفضل بلاد المشرق (خراسان وطبرستان وأرمينية وبلاد ما وراء النهر) بين عامى ١٧٦هـ/٧٩٢ م و١٨٠هـ/٧٩٧م وقد قام الفضل بجهد كبير فى بناء المساجد وحفر الترع ، كما كانت له جولات حربية مظفرة فى هذه المناطق . أما جعفر وهو أصغر سناً من الفضل فقد ولىّ على الجزيرة والشام ومصر والأقاليم الغربية وكان شاباً مرحاً فصيحاً ، وقد ضبط هذه الأقاليم بدهائه أكثر من جولاته العسكرية فوضع حداً لإزدياد نفوذ العرب فى الشام ، وقد دفع هارون بخاتمه إلى يحيى فى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م فأصبحت ليحيى الوزارتان . وعندما تقدم يحيى فى السن قام ابنه جعفر مقامه فى الوزارة بل تلقب بالسلطان إشارة إلى قيامه بالدولة العباسية ولم يخرج عنه من المناصب الخلافية إلا الحجابة التى هى القيام على باب الخليفة ، وقد بلغ من نفوذه أنه شارك الخليفة فى نقش اسمه معه على السكة . أما موسى بن يحيى فكان يعهد له فى المهام الخطيرة . أما الإبن الرابع ليحيى وهو محمد فقد عرف عنه بعلو الهمة وسماحة الخلق .

مما تقدم نرى أن أسرة البرامكة عملت فى خدمة العباسيين منذ بداية الدعوة حسبما أوجزناه ، وأعطاهم هارون الرشيد سلطات واسعة وافسح لهم المجال فى الاشراف على الادارة العامة والأموال والعلوم والفنون حتى ملكوا العقول وساعدهم على ذلك انهم كانوا موهوبين مثقفين ثقافة عالية تجمع بين تراث الفرس والهند والدين الإسلامى . فما هى أسباب نكبتهم بعد ان استمر سلطان البرامكة منذ استخلاف هارون سبع عشر سنة وسبعة أشهر حتى شبهت دولتهم بدولة فى دولة الرشيد ؟ .

نكبة البرامكة :

أجهد المؤرخون أنفسهم فى تفسير نكبة البرامكة ، فمنهم من قال : أن السبب فى نكبتهم يرجع إلى استئثارهم بالأموال حتى قيل أن جعفر البرمكى أنفق على بناء داره عشرين مليون درهم غير الأثاث والخدم إلى غير ذلك من أسباب الترف فى الوقت الذى كان فيه هارون الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه حتى أنه قال يوما : " ان ضياعهم ليس لولدى مثلها وتطيب نفسى لها " . ويبدو أن هذا الدافع ضعيفا لأن هارون الرشيد كان فى إمكانه مصادرة أموال البرامكة دون أن يوقع بهم .

فريق آخر من المؤرخين يرى أن السبب فى نكبة البرامكة هو الزندقة وهو الإلحاد والكفر ويدللون على ذلك أن البرامكة أخذوا الإسلام مأخذا هينا بأن جعلوا بيوتهم ملجأ لشرب الخمر والمجون ، وكانت لهم مجالس شرب ولهو علنية وغير محتشمة يلبسون فيها هم وندمائهم ثيابا ملونة من حمراء وصفراء وخضراء إمعانا فى اللهو ، ويقال أن يحيى البرمكى كان يجمع فى داره العلماء من أهل الأديان والنحل المختلفة ويجعلهم يتناظرون مع العلماء المسلمين فى بحوث فلسفية فى الكون والقدم وفى الإمامة أنص هى أم اختيار . وأن البرامكة أرادوا العودة إلى ديانتهم حينما زينوا لهارون الرشيد أن يضع مجمرة فى جوف الكعبة ، يتبخر عليها العود ، فعلم هارون أنهم أرادوا أن يحولوا الكعبة إلى بيت نار .

ومن ثم اتهم البرامكة بالزندقة وهى تهمة لجأ إليها العباسيون للقضاء على أعدائهم لأنها إذا كانت صحيحة لإتخذها هارون الرشيد لإثارة الناس ضدهم .

ويفسر بعض المؤرخين نكبة البرامكة في ضوء طبيعة الحكم ونفسية الحكام ، فالخلفاء العباسيون عملوا منذ نشأة دولتهم على قتل الذين عملوا معهم بإخلاص وتفانوا فيـــــها ، مثلما قتل أبو العباس السفاح أبا سلمة الخلال وزير آل محمد ، وأوقع أبو جعفر المنصـــور بأبي مسلم الخرسانى ، ثم بوزيره أبي أيوب المورياني ، أما الخليفة المهدى فقد أوقع بوزيـــره أبي عبيد الله معاوية بن يسار . ومن ثم لم تكن نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد بشىء جديد على خلفاء الدولة العباسية الذين كانوا يكرهون أن يزيد نفوذ رجالهم إلى درجـــة تنتقص من مكانتهم .

ويرى بعض المؤرخين أن البرامكة كانوا يضمرون نقل الخلافة إلى العلويــين بدليــل إطلاق يحيى بن جعفر البرمكى سراح يحيى بن عبد الله العلوى أخو النفس الزكيـــة دون استئذان الخليفة ، وقد استغل هذا الحادث ضد البرامكة أسوأ استغلال . فإذا أراد البرامكة بهذا العمل ان يوجد منافس لهارون ، أو تحقيق انقلاب صعب التحقيق فانهم لن يصلـوا إلى أكثر مما وصلوا إليه من سلطان ونفوذ فى عصر هارون الرشيد بصفة خاصة قبل نكبتهم .

ويفسر بعض المؤرخين ومن بينهم الطبرى نكبة البرامكة إلى قصة العباســة أخــت هارون الرشيد يظهر فيها الخيال ، ويراد بها طعن هارون الرشيد فى عرضــه وكرامتــه ، ويبدو أنها من وضع الشعوب الفارسية التى أرادت الإنتقام من الخليفة هارون الرشيد الذى أوقع بالبرامكة من بنى جلدتهم . وقد نفى ابن خلدون هذه القصة و لم يذكرها الاصفــهانى فى كتابه الأغانى . **وملخص هذه القصة** : أن هارون الرشيد كانت له أخت اسمها العباسة أو عباسة ، تتمتع بثقافة واسعة وكان الرشيد يحب مجالستها ، وفى نفس الوقــت يحــب مجالسة صديقه جعفر البرمكى ، ولكى يجمع بينهما فى مجلس واحد عقد لجعفر على أخته

زواجا صوريا حتى يحل له النظر إليها ، ثم لا يقربها ، وأخذ عليه المواثيق والأيمان الغليظة ، فكان جعفر والعباسة يجتمعان ثم يقوم الرشيد عنهما ، ويخلوان بأنفسهما ، فعاشرها جعفر، فحملت منه وولدت غلاما ، خبأته فى مكة خوفا من إفتضاح أمرها . وظل الأمر مستورا حتى وقع الخلاف بينها وبين بعض جواريها فأشاعت إحدى الجوارى هذا الأمر حتى انتهت الأخبار إلى هارون الرشيد فأغضبه الأمر وبدأ يتحرى عن الصبى فى مكة فلما أحضروه سأل اللواتى معهن الصبى فأخبرته بمثل القصة التى أخبرته بها الجارية فأراد قتل الطفل ثم عدل عن ذلك ، ولما عاد من الحج سنة ١٨٣هـ/٨٠٣م انتقم من البرامكة. ويذكر المسعودى أن العباسة كانت تريد جعفرا وهو الذى يتمنع ، وأن العباسة إزاء ذلك دبرت خلوتها معه فواقعها فى حالة سكر على أساس إنها جارية إشترتها أمه له ، فلما واقعته قالت له : إنى مولاتك العباسة بنت المهدى فوثب فزعا وقد زال عنه سكره ورجع اليه عقله ، وأنه أقبل على أمه وقال لها : لقد بعتنى بالثمن الرخيص . فانصرفت العباسة مشتملة منه على حمل ثم ولدت غلاما ، أو ولدت مرتين ، فوجهت الولد إلى مكة ومنها إلى اليمن ، وأن الرشيد حج إلى الحجاز فعرف الخبر ، وأن الرشيد عاقب العباسة بوضعها فى صندوق وتدلت فى بئر وهى حية وأمر بابنيها ، فنظر إليهما وكانا كلؤلؤتين فبكى ، ثم رمى بهما فى البئر ، وطمى عليهم .

وتشير بعض الروايات إلى أن العباسة كانت متزوجة من أمير البصرة محمد بن سليمان ابن عبد الله بن عباس ، الذى تزوجها سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٨م وتوفى فى العام التالى ، كما أن زوجيها الأخرين توفيا قبلها مما يدل على أن قصة العباسة مختلقة .

ومن المرجح أن نكبة البرامكة ترجع إلى الدسائس والمكائد التى حيكت ضدهم من المعارضين والطامعين فى أن يحلوا محلهم ، وإلى ذلك الصراع الخفى بين العرب والفرس ، ففى عهد هارون الرشيد ظهر هذا الصراع حينما عهد بولاية العهد من بعده سنة ١٧٥هـ/٧٩٢ م إلى ابنه محمد الأمين من زوجته أمة العزيز الملقبة بزبيدة لنضارتها –

وهى ابنة عمه جعفر بن أبى جعفر المنصور – وحاجبه الفضل بن الربيع الذى ولى الحجابة بعد أن عزل هارون الرشيد محمد بن خالد بن برمك عنها . وعلى الرغم من صغر سن الأمين وقت هذه البيعة ، إذ لم يكن قد تجاوز من العمر غير خمس سنيين ، فقد بويع له فى جميع الأمصار فإن تلك المبايعة تدل على ضمان الخلافة للعصبية العربية ، ويقال أن زبيدة قد أرضت البرامكة الجنود بأموال عظيمة حتى سكنوا .

ويبدو أن هذا الوفاق بين الحزب العربى والحزب الفارسى وعلى رأسهم البرامكة لم يدم طويلا ، فأخذوا يسعون لدى الرشيد للنظر فى مسألة ولاية العهد حرصا على نفوذهم فعمدوا على إيجاد منافس لزبيدة وفريقها من العنصر العربى ، حتى نجحوا فى جعله يعهد بولاية العهد من بعد الأمين إلى ابنه عبد الله المأمون من زوجته مراجل الفارسية سنة ١٨٣هـ/٨٩٠م ، فى أثناء حجه إلى الحجاز ، على أن يتولى الأمين حكم الأقاليم الغربية و المأمون الأقاليم الشرقية بعد وفاة أبيه ، ومعنى ذلك أن فى هذه البيعة فى صالح المأمون أكثر منها فى صالح الأمين ، وإن بقى له لقب الخلافة ، فإنه لم تكن له سلطة على أخيه ؛ إذ لم يكن له الحق فى عزل المأمون ، أو التدخل فى شئونه .

وفى سنة ١٨٦هـ/٨٠٢م حج هارون الرشيد ومعه ولداه الأمين والمأمون ، وقد جعل البرامكة هارون يوافق على على بيعة ابن ثالث له وهو القاسم ولقبه بالمؤتمن على أن يتولى بعد المأمون ، ويكون أمره له إن شاء أن يبقيه أبقاه ، وإن شاء أن يخلعه خلعه . وسجل هارون هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلقها فى الكعبة فى أنابيب فضة ، كما أرسلت نسخ منها إلى العمال فى الأقاليم العباسية ، وأثبتت فى الدواوين .

ويبدو أن البرامكة قد حاولوا من هذا التقسيم فصل الأقاليم الشرقية عن الخلافة العباسية بحكم أنها مناطق فارسية أو أعجمية ، خاصة بعد أن زاد نفوذ العرب الذى كان يمثله الأمين وزبيدة وفريقها ، وهذا الإنفصال لن يطول ، وحدث فى عهد المأمون .

ولا شك أن فريق زبيدة تحرك سريعا ، فقد كثرت السعايات لدى هارون الرشيد بوسائل متعددة ، منها أن زبيدة كانت تنفر من البرامكة وأن جعفر البرمكى كان يتعمد عدم تنفيذ أوامرها فاشتكت إلى الرشيد الذى اضطر إلى التنبيه على جعفر البرمكى فى ذلك ، كما كانوا يذكرونه باستبدادهم ، واستحواذهم على الأموال ، وتقربهم من العلويين ، مما جعل هارون الرشيد يشعر بأنه مغلوب على أمره وأن البرامكة قد شاركوه فى الحكم مما اضطره إلى أن يهرب من استبدادهم ، بترك بغداد ، وبالتنقل من بلد إلى بلد من الرقة إلى الحيرة ، واتخذ من الرقة على نهر الفرات مقرا له حيث بنى فيها القصور .

وهكذا بدأ هارون الرشيد يدبر نهايتهم فى كتمان وفقا لخطة محكمة ، لم تمكنهم من الهرب ، ففى ليلة السبت من أول صفر سنة ١٨٧هـ/٩ يناير ٨٠٣م ، أمر عماله بالقبض على البرامكة جميعا ، ولا أمان لمن أواهم ، فأحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليهم ، وتحفظ على جميع أموالهم ، وفى الليلة ذاتها ، دبر قتل جعفر بن يحيى البرمكى ، على أساس أنه يحكم الدولة العباسية باسم أبيه يحيى البرمكى ، فطلب من سيافه مسرور أن يذهب إلى جعفر ويعود إليه برأسه ، فضرب مسرور عنقه ، وقطع جسده وجعل على ثلاثة جسور ، ثم أحرق .

ومع هذا فإن هارون الرشيد لم يقتل من البرامكة غير جعفر بن يحيى ، أما بقية البرامكة فلم تشير الروايات التاريخية إلى أن هارون قد انتقم منهم انتقاما أهوج بقتلهم جميعا ، وأن نكبتهم كانت فى سلطانهم ومالهم ، وهكذا تنتهى هذه النكبة بانتصار الفريق أو الحزب العربى فقد تولى الوزارة الفضل بن الربيع ، كما تولى هارون الرشيد أمور السلطة بنفسه بعد أن قضى على مصادر القوة التى هددت حكمه والتى تمثلت فى البرامكة.

خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن :

كان العلويون يأمنون بأحقيتهم فى الخلافة ومن ثم فقد رفعوا راية العصيان على الخلافة العباسية فتعرضوا بالتالى للقتل والسجن والتعذيب على أيدى أبناء عمومتهم العباسيين ، وقد حاول هارون الرشيد أن يسترضيهم ليأمن ثورتهم ، فرفع الحجز المفروض عمن كان منهم يسكن فى بغداد وسمح بمغادرتها إلى المدينة المنورة ، لكن هذه السياسة لم تجدى فى استرضاء كافة العلويين ، فقد ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن أخا النفس الزكية الذى انسل مع الحجيج بعد نجاته من مذبحة "فخ" سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م فى عهد الخليفة المهدى ، فذهب إلى بلاد الديلم وهناك كثر أنصاره فقد توجهت إليه الشيعة من جميع النواحى وبايعوه ، وسموه بالمهدى الذى يلقب به معظم أئمة العلويين ، فاشتدت شوكته وأعلن خروجه على هارون الرشيد .

هذه الفتنة العلوية جعلت هارون يجهز جيشا بقيادة الفضل بن يحيى البرمكى لقمع ثورة يحيى العلوى سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م ، وقد لجأ الفضل إلى اسلوب التهديد والترغيب حتى قبل يحيى بالصلح على أن يكتب هارون الرشيد أمانا له بخط يده . فكتب الأخير الأمان وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشايخ بنى هاشم ، وأرسله فى جملة هدايا إلى يحيى الذى استأمن وقدم إلى بغداد ، فاستقبله هارون وأجرى له الرزق ، لكنه وجد من وشى بيحيى العلوى عند الخليفة هارون الرشيد على أنه أخذ يدعو لنفسه ، فنقض الرشيد عهده وأمانه ليحيى وتخلص منه . ثم غير هارون الرشيد سياسته تجاه العلويين ، فأنزل أشد العقوبات بمن اتهم بالميل إليهم ، أو الدعوة بأحقيتهم فى الخلافة .

ثورة رافع بن ليث بن سيار :

ولى هارون الرشيد على بن عيسى بن ماهان بلاد خراسان أكبر المناطق فى المشرق اتساعا ونشاطا فى العصر العباسى ، فأخذ هذا الوالى يرهق الأهالى فى جمع الأموال والتشدد بالمظالم ، وبالمقابل يرسل إلى الخليفة ببغداد مزيدا من الأموال ، لكن الأهالى تذمروا من سياسة على بن عيسى فكتبوا للرشيد عن ذلك .

فأرسل هارون لعلى بن عيسى يحقره لسوء إدارته ، وكان على نية حربه حتى أنه خرج إلى الرى سنة ١٨٩هـ/٨٠٥ م لعقابه لكن على بن عيسى أسرع إلى ملاقاته بالهدايا وأقنعه بحسن سيرته . فعاد هارون الرشيد واستأنف ابن ماهان سيرته الأولى مع الأهالى . ثم أرسل هارون الرشيد ضده قائده هرثمة بن أعين وكتب له عهدا بتولية خراسان ، فلما وصل هرثمة إلى مرو عاصمة خراسان ، قبض على على بن عيسى وصادر أمواله فخلص الناس من ظلمه ، وحمل إلى هارون الرشيد وفى رجليه قيد .

أما رافع بن ليث بن نصر بن سيار فقد ولى حكم بلاد ما وراء النهر من قبل على بن عيسى سنة ١٨٩هـ/٨٠٥م وكان الأول حفيد نصر بن سيار القائد الأموى مما جعل هارون الرشيد يتوجس منه خيفة من عودة الخلافة الأموية نتيجة هذا التعيين ، فخرج هرثمة بن أعين لمحاربته وتبعه هارون الرشيد ومعه ولداه المأمون وصالح ، مما دفع رافع إلى إعلان الثورة فى سمرقند فالتف حوله كثير من أبناء سمرقند وأيدوه فى ثورته فقتل عامل هارون سنة ١٩٠هـ/٨٠٦م ، واستولى على كثير من المدن ، كما راسل رافع الترك المحيطين به مما جعلهم يجيشون من جديد لنصرة رافع غير أنهم سرعان ما تركوه مما أضعف من قوة رافع بن سيار .

فى نفس الوقت تمكن هرثمة بن أعين من فتح بخـــارى وأســـر أخـــا لرافـــع ســـنة ١٩٣هـــ/٨٠٩م فسيره إلى طوس حيث توقف فيها هارون الرشيد لمرضه فقتل أخا رافـــع غير أن هارون ما لبث أن توفى فى طوس قبل أن يتمكن من القضاء على تمرد رافـــع بـــن سيار .

سياسة هارون الرشيد الخارجية :

منذ أن قامت الخلافة العباسية وهى تسعى إلى السيطرة على الأندلس ، فلمـــا تـــولى هارون الرشيد الحكم فقد أقر بالأمر الواقع فيما يخص دولة بنى أمية بالأندلس ، وتشـــير بعض الروايات التاريخية العربية إلى أن هارون الرشيد قد تعاون مع الأمويين فى الأندلـــس فى التصدى لأطماع دولة الفرنجة فى الأندلس .

ففى سنة ١٧٤هـــ/ ٧٩٠م أرسل والى مصر داوود بن يزيد ، من أسرة المـــهلب ، جندا إلى هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ليحسم نزاعا وقع بينه وبين أخوتـــه ، حـــتى لا تضيع بلاد الأندلس ، غير أن الفرنج قد أسروا هذا الجند . وأن الفرنج لكى ينتقموا مـــن تقديم هذه المعاونة لمسلمى الأندلس ، فإنهم قصدوا الإسكندرية فى سنة ١٨٩هـــ/ ٨٠٥ م لكنهم لم ينجحوا ، لأن الحكم بن هشام هاجم بلاد الفرنجة مما جعلـــهم لا يســـيرون فى مشروع الغزو .

أما سياسة هارون الرشيد مع شارلمان امبراطورالدولة الرومانية (٧٦٨-٨١٤م) فقـــد اتسمت بالود والصداقة وتبودلت بينهما السفارات والهدايا فى المدة بين ١٨٣-١٩١هـــ فقد كانت المصالح المشتركة تجمع بين الحاكمين ، فشارلمان أراد من هـــذا التحـــالف أن يضعف من نفوذ منافسه امبراطور الدولة البيزنطية وتيسير الحج إلى الأراضى المقدســـة فى بيت المقدس ، لا سيما كنيسة القيامة التى بنيت على مكان مهد السيد المسيح ، مما يرفع

من مكانته بين مسيحى العالم ، أما هارون الرشيد فقد استغل هذا التحالف ضد أعدائـــه البيزنطيين .

أما علاقة هارون الرشيد بالبيزنطيين فقد سادها العداء ، فقد سار الرشيد على نهـــج سياسة أبيه وجده ، ويرجع ذلك إلى أن البيزنطيون قد انتهزوا فرصة بعد الخلافة العباســية ببغداد عن أراضيهم ، وأخذوا يغيرون على أراضى الدولة العباسية المجاورة لهم أو منـــاطق الثغور ، فانصرف هارون إلى تأمين حدود دولته مع الدولة البيزنطية باستكمال تحصينـات ثغوره ، وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيرة وشمال الشام أطلق عليـــها اســم منطقــة العواصم – أى التى يعتصم فيها الجند – وجعل قاعدتها مدينة منبج فى شمال شرق حلـب ، كما اهتم هارون بتأمين الثغور الشامية ، فعمر طرطوس وأطنة أو أدنه بين آسيا والشــام ، كما أقام حصونا جديدة مثل الهارونية فى شرق جيحان .

كذلك اهتم هارون الرشيد بالأسطول العباسى الذى استولى فى عهده على جزيـــرة رودس المقابلة للأسكندرية سنة ١٧٥هـــ/ ٧٩٢ م ، وشن الأسطول العباسى حمـــلات على جزيرة كريت ، كما غزا قبرص سنة ١٩٠هـــ/ ٨٠٩ م ، وسبى من أهلها ستة عشر ألفا .

يضاف إلى ذلك أن هارون الرشيد قد وجه الحملات المتكررة على أراضى الدولـــة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، ففى سنة ١٨١هـــ/ ٧٩٧ م استولى على قلعة الصفصـــاف بجوار المصيصة وواصل السير إلى أن وصل أنقرة ، مما دفع الملكة إرينى إلى طلب الهدنـــة ، مثلما فعلت معه أيام الخليفة المهدى ، وقد ظلت ايرين تدفع الجزية السنوية إلى أن ماتت ، ولكن عندما تولى نقفور الأول ١٨٦هـــ-١٩٣هـــ/٨٠٢-٨٠٨م نقض الهدنة ورفـــض دفع الجزية ، وكتب إلى هارون يقول : " من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العـرب ، أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقـــام البيذق ،

فحملت اليك من أموالها ما كانت حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى هذا فأردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به من المبادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك " .

وقد غضب هارون الرشيد عندما قرأ هذه الرسالة غضبا شديدا وكتب على ظهرها:"بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم : قد قرأت كتابك ، يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه ، دون أن تسمعه ، والسلام " .

حينئذ خرج هارون الرشيد بنفسه على رأس جيش كبير فى سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م ، وانضم إليه كثير من المتطوعة ، وتوغل فى آسيا الصغرى حتى وصل إلى مدينة هرقلة قرب القسطنطينية ، واضطر نقفور إلى طلب المهادنة ودفع الجزية ، وعقب ذلك نقض نقفور الهدنة فعاد هارون إلى حربه فى سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٤ م فجرح نقفور بثلاث جراحات ، وقتل أكثر من ٤٠ ألفا من الروم ، ومن ثم قبل نقفور الموادعة وفى العام التالى حدث الفداء بين الروم والمسلمين وهذا الفداء لم يحدث منذ عهد الخليفة المنصور .

وقد استؤنفت الحرب بين الدولتين بعد ذلك ولعل أهم الغزوات التى قادها هارون الرشيد ضد البيزنطيين تلك الغزوة التى حدثت سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م ، ذلك أن نقفور أغار بقواته على زربى من نواحى المصيصة ، فتوجه هارون على رأس جيش قوامه ١٣٥ ألفا مرتزق ، كما أرسل جيشا آخر قوامه ٧٠ ألفا ، فاستولى على كثير من الحصون مثل طوانة بثغر المصيصة ، وحاصر هرقلة ٣٠ يوما وضربها بالمنجنيق ، ولما اشتعلت النيران بها استسلمت ، فطلب نقفور الهدنة ، وخاطبه بأمير المؤمنين وتعهد بدفع الجزية ، وألا يعمر نقفور هرقلة .

وفى هذا الصدد يقول الطبرى : " وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطانته ، وسائر أهل بلده ، خمسين ألف دينار ، منها على رأسه أربعة دنانير وعن رأس أبنه استبراق بدينارين وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبى هرقلة كتابا نسخته : " لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . سلام عليك ، أما بعد أيها الملك فإن لى إليك حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك ، هينة يسيرة ، أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على ابنى ، فإن رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته " .

واستهداه أيضا طيبا وسرادقا من سرادقاته ؛ فأمر الرشيد بطلب الجارية ، فأحضرت وزينت وأجلست على سرير فى مضربه الذى كان نازلا فيه ، وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور وبعث إليه بما سأل من العطر ، وبعث إليه من التمور والأخصبة والزبيب والترياق ، فسلم ذلك كله إليه رسول الرشيد ، فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومائة ثوب ديباج ومائتى ثوب بزيون – نوع من نسيج البز أو رقيق الديباج – واثنى عشر بازيا ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين . وكان نقفور قد اشترط ألا يخرب ذا الكلاع ولا صمله ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة ، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار " .

أما عن سياسة هارون الرشيد تجاه بلاد المغرب فقد أقام فى أفريقية دولة الأغالبة وهى دولة مستقلة فى نطاق التبعية للخلافة العباسية لتكون حاجزا بين العباسيين والأدارسة ، والدولة الأموية فى الأندلس ، فضلا عن الخوارج فى الدولة الرستمية ودولة بنى مدرار .

توفى هارون الرشيد وهو فى طريقه إلى خراسان للقضاء على ثورة رافع بن الليث بن سيار ، وتوفى بمدينة طُوس – مدينة مشهد الحالية فى شمال ايران – ودفن بها فى جمادى الآخر سنة ١٩٣هـ/ مارس ٨٠٩م .

ويذكر الطبرى أن نعى الرشيد لما ورد بغداد صعد اسحاق بن عيسى بن علىّ المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أعظم الناس رزيئة ، وأحسن الناس بقية رزؤنا ، فإنه لم يُرزأ أحدا كرزؤنا ، فمن له مثل عوضنا ! ثم نعاه إلى الناس " .

محمد الأمين " ١٩٣-١٩٨هـ"

تولى محمد الأمين الخلافة بعد وفاة والده هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م ويعتبر الأمين أول خليفة لم تلده أمة ، إذ أن أمه وأباه عربيان هاشميان ، ولعله بسبب أصله العربى النقى ، فانه بُويع بولاية العهد من دون أخيه المأمون ، الذى كانت أمه أعجمية ، مع أن المأمون كان قد ولد قبل الأمين ، فبويع للأمين وهو لم يتجاوز خمس سنوات فى سنة ١٧٥هـ/٧٩٢م .

وبتولية الأمين ،اشتد الصراع بين العرب والعجم لذلك مرت الخلافة العباسية فى عهد الأمين بمرحلتين :

مرحلة دبلوماسية : ١٩٣-١٩٥هـ/٨٠٩-٨١١م .

مرحلة حرب : ١٩٥-١٩٨هـ/٨١١ -٨١٣م .

المرحلة الدبلوماسية :

مما لا شك فيه أن فى هذه المرحلة أخذ الصراع بين الأمين والمأمون صورة المراسلات والسفارات المتبادلة حول مشكلة العهد المعلق فى الكعبة ، ذلك أن الأمين أراد أن يحول دون انفصال الأجزاء الشرقية ، والحفاظ على وحدة الدولة العباسية وهى التى فتتها التولية المزدوجة ، ويبدو أن هذا الموقف كان يسعى له المأمون أيضاً . وقد ظهرت آثار نكبة البرامكة فى هذه الفتنة فقد وقفت القوى العربية بزعامة الفضل بن الربيع وراء الأمين الذى كان مع هارون فى رحلته الأخيرة ، فاسرع إلى بغداد على رأس الجند ومعه المال ، ليبايع الأمين الذى كان ينوب عن والده فى تصريف شئون الدولة ، فاستوزره ، أما المأمون فقد استند على الحزب الفارسى ومثله وزيره الفضل بن سهل وهو الذى حرضه البقاء فى خراسان ومعاداة الأمين وكان يقول للمأمون : "اصبر قليلاً أضمن لك الخلافة " .

ولا شك أن المراسلات قد تبودلت بين الأمين والمأمون ، وقد حاول الأمين أن يستدعى أخاه المأمون إلى بغداد ليكون تحت رقابته فيحرم جنده فى خراسان من زعامته ، كما طالب الأمين بوضع نظام للبريد تابع له فى خراسان ، ولكن المأمون رفض هذان المطلبان ، وهنا طلب الأمين أن يتنازل له عن بعض كور خراسان وأن يوجه العمال إليها من قبل الأمين بحجة أن مال خراسان يكفيها ، أما مال العراق فلا يكفيه ، ولكن المأمون رفض هذا الطلب أيضاً وبعث إلى الأمين برسالة قال فيها :

" قد بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسألنى التجافى عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد فى العقد ، وجعل أمره إلىّ ، وما أمرٌ رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره ؛ غير أن الذى جعل إلىّ الطّرْف الذى أنابه ، لا ظنين فى النظر لعامته ، ولا جاهل بما أسند إلىّ من أمره ، ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كنت على الحال التى أنا عليها من إشراف عدوٌ مخفوف الشوكة ، وعامة لا تتألف عن هضمها ، وأجناد لا يستتبع طاعتها

إلا بالأموال وطرف من الإفضال – لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحسب من لم أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ، ووكد به مأخوذ العهد ! وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمتُ لم يُطلع بمسألة ما كتب بمسألته إلىّ . ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله " .

وأمام ذلك لم يجد المأمون بدأً من وضع حراس على الطرق لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة فى أمره ، أو تاجر معروف مأمون ، كما لا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء ، ولا يدعه يستعلم خبراً ، وأمر المأمون بتفتيش الكتب وقام بالقبض على بعض رجال الأمين " فحملوا محروسين ، لا خبر يصل إليهم ، ولا خبر يتطلع منهم إلى غيرهم ، وقد كانوا مُعَدِّين لبث الخبر فى العامة وإظهار الحجة بالمفارقة والدعاء لأهل القوة إلى المخالفة ، يبذلون الأموال ، ويضمنون لهم معظم الولايات والقطائع والمنازل ، فوجدوا جميع ذلك ممنوعاً محسوماً ، حتى صاروا إلى باب المأمون . "

وكان الكتاب الذى بحوزتهم إلى المأمون : " أما بعد ، فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف ، وضم ما ضم إليك من كور الجبل ، تأييدا لأمرك ، وتحصينا لطرفك ، فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك . وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده ، وقد ضم لك إلى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها ، فالحق فيها أن تكون مردودة فى أهلها ، ومواضع حقها . فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ، لتكون فضول ردها مصروفة إلى مواضعها ، وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى غلينا علم ما نعنى به من خبر طرفك ، فكتبت تلط –تجحد– دون ذلك بما إن تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك ، فاثن عن همك أثن عن مطالبتك ، إن شاء الله . "

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب إلى الأمين : " أما بعد ، فقد بلغني كتابُ أمير المؤمنين، و لم يكتب فيما جهل فأكشفَ له عن وجهه ، و لم يسأل ما يوجبه حقّ فيلزمني الحجة بترك إجابته ، وإنما يتجاوز المتناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها ، فمتى تجاوز متجاوز – وهى موجودة الوسع – و لم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما فى تركها ، فلا تبعثنى يابن أبى على مخالفتك وأنا مُذعِن بطاعتك ، ولا عليّ قطيعتك . وأنا على إيثار ما تحبّ من صلتك ، وارْضَ بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك . والسلام " .

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين غضب غضباً شديداً وأرسل إليه إليه برسالة يخيره فيها بين الإذعان لشروطه أو التعرض لنار لاقبل له بها . ولا شك أن المأمون قد أراد أن ينهى الخلاف بينه وبين الأمين ، لكن رجال البلاط فى خراسان وبغداد زادوا من هوة الخلاف بين الأخوين ، خاصة وأن المأمون قد شعر من أخيه عدم الوفاء فأخذ يوطد نفوذه فى خراسان وبدأ قادة الفرس يطمئنوه بأن الأمر لابد أن يصير إليه خاصة وأنه على حد تعبير أحدهم نازل بين أخواله وبيعته فى أعناقهم .

مرحلة الحرب:

فى أوائل سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م لم يجد الأمين بدأ من خلع المأمون من ولاية العهد ، فأعلن وقف الدعاء له ، وأعلن البيعة لابنه موسى ولقبه الناطق بالحق ونقش اسمه على السكة ، وأرسل إلى مكة من سرق من الكعبة المواثيق وأحرقها ، وكان هذا بمثابة خلع المأمون وإعلان الحرب بين الأخوين .

وتجاه هذا الأمر جهز المأمون جيشاً كبيراً معظمه من الفرس وحشده على حدود خراسان فى منطقة الرى ، وولى عليه قائدين من أتباعه المخلصين : **القائد الأول** طاهر بن

الحسين وهو قائد فارسى كان مع هرثمة فى حصار رافع ، حيث كان على بن عيسى قد عمد أثناء ولايته على خراسان إلى معاداة أسرة طاهر بن الحسين ، فطرد أباه مصعب عن هراة التى كانت لهم ، وقد أثبت طاهر مقدرة حربية فى النزاع بين الأمين والمأمون .

أما القائد الثانى فكان هرثمة بن أعين الذى يرجع إليه الفضل فى اعداد جيش المأمون إعداداً قوياً . واختار الأمين علىّ بن عيسى الذى عرف بأحاسيسه العربية مما جعله مكروهاً للخرسانيين وعينه على رأس جيشه فقد كان خبيراً بأحوال الخرسانيين منذ كان والياً على خراسان فى عهد هارون الرشيد .

تقدم على بن عيسى نحو الرى لقتال طاهر بن الحسين دون أن يستعد له استعداداً كافياً مستخفاً به بوصفه قائداً ينقصه المهارة والخبرة العسكرية لحداثته . وكان يقول فى هذا الصدد : " وما طاهر ! فو الله ما هو إلا شوكة من أغصانى ، أو شرارة من نارى ، وما مِثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب " . وفى رواية أخرى : " ليس مثل طاهر يُستعد له بالمكايد والتحفظ ، إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين : إما أن يتحصن بالرى فيبيته أهلها فيكفوننا مؤنته ، أو يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعساكرنا منه" .

لكن طاهر استطاع أن يقنع سكان الرى بمعاداة العرب ، فحلت الهزيمة بعلىّ بن عيسى على يد طاهر بن الحسين وسقط علىّ بن عيسى نفسه قتيلاً فى المعركة سنة ١٩٥هـ/ ٨١١ م .

ثم أرسل طاهر بن الحسين كتاباً إلى الفضل بن سهل يخبره بهذا النصر الذى حققه ويقول له : " كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدىّ ، وخاتمه فى أصبعى ، والحمد لله رب العالمين " .

فلما وصل كتاب طاهر إلى الفضل بن سهل وقرأه ، نهض مسرعاً إلى المأمون فبشره وقرأ الكتاب عليه ، فأمر المأمون بإحضار أهل بيته والقواد ووجوه الناس ، فدخلوا عليه فسلموا عليه بالخلافة .

ولما انتهى الخبر إلى الأمين بقتل على بن عيسى ، هاله خبر الهزيمة التى منى بها جيشه ، فأرسل جيوشاً إلى الرى لكنها لقيت المصير نفسه الذى لقيه جيش على بن عيسى ، وقد استنفذت هذه الجيوش موارد الأمين ، وفى الوقت ذاته تدهورت الحالة السياسية فى بغداد فقد قام الحسين بن على بن عيسى بإنقلاب فى بغداد فى رجب سنة ١٩٦هـ/مارس ٨١٢ م ، فخلع الأمين ، ووضعه فى الحديد ، كما حبس أمه زبيدة ولكن الحربية أوحرس الأمين ومعهم العوام فى بغداد قتلوا الحسين وفكوا أسر خليفتهم الأمين .

أما الفضل بن الربيع وزير الأمين فقد فرّ من بغداد و لم يظهر إلا بعد أن انتصر المأمون فعفا عنه ، أما جند الأمين فقد وهنت عزيمتهم من كثرة الهزائم التى لحقت بهم على أيدى جند المأمون ، فهابوا لقائهم ، بحيث لم يستطع الأمين أن يرسل جنداً آخرين .

وقد شجع هذا المأمون والفضل بن سهل للتحول من الدفاع إلى الهجوم ، وأعدا جيشين لمهاجمة بغداد من جهتين ، فحاصر طاهر بن الحسين بغداد من جهة الغرب ، وهرثمة بن أعين من ناحية الشرق ، فنصبت على بغداد المنجنيقات ، وهى آلات الحصار للرمى بالحجارة والنار ، وحفرت الخنادق ، وبنيت الحيطان لحصار طويل ، وتساقطت المدن العراقية مثل الكوفة والبصرة وواسط والموصل ، وحتى أقاليم الخلافة ، ولا سيما فى الجزيرة العربية ، فإنها دعت للمأمون ، الذى عين ولاته فى مكة والمدينة واليمن وعمان واليمامة والبحرين .

أما فى بغداد فقد دافع عنها جماعة من العيارين ، بلغوا مائة ألف ، وصفوا بأنهم من الرعاع ، وجلهم من العراة ، فقد كانوا لا يلبسون إلا الضرورى من الملابس ، ويضعون على رؤوسهم خوذ من الخوص ، وفى يد كل واحد منهم ترس أو مجن من خوص حشى بالحصى والرمل ، وفى اليد الأخرى مقلاع ، وتحت ابطه مخلاة فيها حجارة ، ، وكان العيارون يدافعون عن بغداد ببسالة نادرة ، لا يهابون بالقتل والهدم ، حتى قتل منهم ما يقرب من عشرة آلاف .

وعلى الرغم من بدائية أسلحة العيارين إلا أنهم ضربوا أمثلة رائعة فى الصمود والشجاعة ، فكان القتال يدور من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت ، حتى سميت الوقعات باسم الدروب ، وهدمت بغداد .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن قائدا خراسانياً من قواد طاهر بن الحسين ، نظر إلى جماعة العيارين ، وقال لأصحابه : " لا يقاتلنا إلا من أرى !! " استهانة بأمرهم واحتقاراً لهم فقيل له : " نعم هؤلاء العيارون هم الآفة " . فقال لهم : " أف لكم حين تنهزمون من هؤلاء وأنتم فى السلاح والعدة والقوة . ولكم مالكم من الشجاعة والنجدة ، وما عسى أن يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عدة ولا أجنة تقيهم " . فأوثر قوسه وتقدم . وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفى يده بارية مغيرة ، وتحت أبطه مخلاة فيها حجارة فجعل الخرسانى كلما رمى بسهم إستتر من العيار فوقع فى باريته أى درقة من الخوص أوقريبا منه فيأخذه فيجعله فى موضع من باريته . ولم يزل كذلك حتى فنى سهام الخرسانى ثم حمل عليه العيار ورماه بحجر من مخلاته فما أخطأ به عينه ، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه ففر هاربا من أمامه وهو يقول : ليس هؤلاء بأنس (ناس) .

على أن الحصار استمر أربعة عشر شهراً ، فاشتد الجوع بالأهالى ، فبدأت الأحيـــاء تستسلم ، وكان الحـــى الذى يفتـــح عنـــوة ، يباح لجنـــد المأمـــون ، فهـــدمت الـــدور ونهبت القصور وأحرقت الدواوين بما فيها من الوثائق ، واستأمن القواد بما فيـــهم خزيمة بن خازم ومحمد بن عيسى صاحب الشرطة ، وظهرت فرقـــة فى بغـــداد تســـمى المأمونية وتنادى بالمأمون ، وتقف فى مواجهة أنصار الأمين المساه بالمحمدية .

ومن هنا أضطر الأمين إلى الإستسلام فى نهاية الأمر ، فجمع رجاله وخطـــب فيـــهم خطبة فى الجناح الذى كان عمله على باب الذهب قال فيها : " الحمد لله الـــذى يرفـــع ويضع ويعطى ويمنع ويقبض ويبسط ، وإليه المصير . أحمده على نوائب الزمان وخـــذلان الأعوان وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال وحلول النوائب وتوفد المصائب ، حمدا يدخـــر لى به أجزل الجزاء ، ويرفدنى أحسن العزاء . وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك لـــه كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته ، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المســـلمين ، صلى الله عليه وسلم ، آمين رب العالمين .

أما بعد يا معشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى فقد علمتم غفلتى كانت أيام الفضـــل إبن الربيع وزير على ومشير ، فمادت به الأيام بما لزمنى به من الندامة فى الخاصة والعامـــة إلى ان نبهتمونى فإنتبهت ، واستعنتمونى فى جميع ما كرهتهم من نفسى وفيكـــم فبذلـــت لكم ما حواه ملكى ، ونالته مقدرتى مما جمعته وورثته عن أبائى ، فقودت من لم يجـــز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت – علم الله – فى طلب رضاكم بكل ما قدرت عليـــه واجتهدتم – *علم الله* – فى مساءتى فى كل ما قدرتم عليه ، من ذلك توجيهى إليكم علـــى ابن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم فكان منكم مـــا يطـــول ذكره ، فغفرت الذنب ، وأحسنت واحتملت ، وعزيت نفسى عند معرفتى بشروط الظفر وحرصى على مقامكم مسلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ومن على يدى أبيـــه كان فخركم ، وبه تمت طاعتكم : عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التألب عليه

إلى ما لا طاقة له به ولا صبر عليه يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إلى عامدين وعلى سيدكم متوثبين مع سعيد الفرد سامعين له مطيعين ثم وثبتم مع الحسين على ، فخلعتموني وشتمتموني ، وإنتهبتموني وحبستموني ، وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم وتلكؤ طاعتكم أكبر وأكثر . فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضى بقدره والسلام " .

ويتضح من هذه الرواية أن الأمين لم يكن موفقاً فى إختيار رجاله ، ولم يكن له من الساسة والقواد من يضارع رجال المأمون من أمثال الفضل بن سهل أو طاهر بن الحسين وكان هذا من أهم الأسباب التى كان لها أثر كبير فى نهاية حكم الأمين ونجاح سياسة المأمون .

وفضّل الأمين أن يسلم نفسه إلى القائد هرثمة بن أعين ، لأنه قائد أبيه هارون الرشيد وأحاسيسه عربية ، على عكس طاهر بن الحسين الذى تميز بالقسوة ، ويبدو أن الأخير قد غضب من هذا لأنه أراد أن يأسر الأمين ، وما يهمنا أن الخليفة الأمين توجه لمقابلة هرثمة فى مركب تسير فى نهر دجلة ، فلما دخلها ، وقف القواد إعظاماً له ، وحبى هرثمة ، قام على ركبتيه أمامه ، واعتذر بأنه لم يقم نظراً لمرضه ، ثم احتضنه ، وقبل يديه ورجليه وعينيه ، إلا أن السفينة الصغيرة أو الحراقة التى كانت تقل الأمين رميت بسهام رجال طاهر بن الحسين ، وسرعان ما غرقت بكل من فيها إلا هرثمة والأمين وبعض القواد ، واستطاع الأمين أن يسبح إلى الشاطىء ، وهناك هجم عليه رجال طاهر بن الحسين وأمسكوا به من شعره ووضعوه فى السجن فلما انتصف ليل الأحد ٢٤ أو ٢٥ محرم سنة ١٩٨هـ/ ٢٤ أو ٢٥ سبتمبر قتل الخليفة الأمين بيد رجال طاهر بن الحسين .

وهكذا انتهت خلافة الأمين ، التى كانت مليئة بالفتن ، وأصبح المأمون خليفة للمشرق والمغرب العباسى فقد بويع له فى بغداد وهو مايزال فى مرو عاصمة خراسان .

عبد الله المأمون "١٩٨ - ٢١٨ هـ"

بويع عبد الله المأمون بالخلافة سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ، وقد ظل مقيما بخراسان ، فقد نشأ وتربى على حب الفرس ولهذا لم ينتقل إلى بغداد مقر الخلافة العباسية بل ظل مقيما فى مدينة مرو بخراسان مدة ست سنوات إنتقل بعدها إلى بغداد سنة ٢٠٤ هـ .

وتشير الروايات التاريخية أن المأمون إنصرف إلى العلم والأدب والفلسفة وشغف بالجدل فى المسائل الفقهية والدينية ، إذ يذكر الفخرى فى الأحكام السلطانية رواية عن ابن طبا طبا يقول فيها : " إنه كان من عظماء الخلفاء ومن عقلاء الرجال ، وله إختراعات كثيرة فى مملكته ، ومنها أنه كان أول من فحص منهم علوم الحكمة ، وحصل كتبها ، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل أقليدس - أى ترجمة كتبه ومنها كتاب أصول الهندسة - ، ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم فى الطب ، وقرب أهل الحكمة ..." .

سياسة المأمون الداخلية :

أصبح المأمون الخليفة الوحيد للمسلمين بعد قتل الأمين ، لكن بقاء المأمون بعيدا عن مركز خلافته ببغداد قد تسبب فى بعض الأزمات خاصة أنه قد فوض إدارة الدولة العباسية إلى وزيره الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل الذى ولاه المأمون على العراق وتزوج من إبنته بوران ، وقد حفل عهد المأمون بالعداء بين الشيعة والسنة ، والعرب والعجم وقيام الثورات ضده ، فكانت أولى الثورات :

١- ثورة عرب العراق :

كان لتحيز المأمون للفرس أثر كبير فى غضب أهل العراق من بنى هاشم فأشاعوا أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وإنه يبرم الأمور على هواه ، وأن بنى سهل قد حجبوا الخليفة وإستبدوا بالرأى دونه وكان لتباطؤ المأمون فى المجىء إلى بغداد من مرو نحواً من ست سنوات أثر كبير فى إطلاق تلك الشائعات ، ومن ثم أنِف العرب أن تخضع الخلافة العباسية للفرس وأعلنوا الثورة العربية فى العراق بزعامة قائد عربى إسمه أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى أحد رجال هرثمة بن أعين ، فإستولى على الكوفة وإنتصر على الجيوش التى أرسلها إليه الحسن بن سهل والى العراق ، وإستولى على البصرة والقادسية وضرب نقودا بإسمه .

وبهزيمة قوات الحسن بن سهل رأى أن يستعين بهرثمة بن أعين لمحاربة أبى السرايا ، فإستولى هرثمة على الكوفة و اضطر أبى السرايا إلى الفرار سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ولم يلبث أن ألقى القبض عليه وقتله . وإستعاد العباسيون سائر مدن العراق فعادت العراق ولاية من جديد للعباسيين .

٢- ثورة العلويين :

إنتهز العلويون فرصة قيام ثورة العرب فى العراق فساهموا فيها للإطاحة بحكم العباسيين ، فقد إمتدت ثورة أبى السرايا إلى الحجاز وكان قد ولى علىٰ مكة أحد أحفاد الحسين بن على الملقب بإبن الأفطس وهو حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، فسارع إبن الأفطس إلى وقف الخطبة فيها للمأمون وطرد والى العباسيين

منها ، وأزال من الكعبة كسوتها العباسية حتى لم يبق عليها من كسوتها شيء ، وبقيت حجارة مجردة ، ثم كساها ثوبين بعث بهما أبو السرايا مكتوب عليها : أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام ، و أن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ، لتطهر من كسوتهم ، وكتبت فى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م .

وعمد إبن الأفطس إلى ما فى خزانة الكعبة من مال فأخذه ، ثم أخذ يلاحق ولد العباس وأتباعهم ، فهاجم ديارهم ، وسلبهم أموالهم ، وإن لم يجد عند أحدهم شيئا حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه ، وكان الذى يتولى تعذيب آل العباس رجلا من أهل الكوفة يسمى محمد بن مسلمة .

ومن ناحية أخرى وفى نفس السنة التى قتل فيها أبو السرايا ، فإن ابن الأفطس ، والعلويين فى مكة ، طلبوا من محمد بن جعفر الصادة بن محمد الباقر بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب ،أن يبايعوه بالخلافة ، فقبل بعد تردد . وسمى بأمير المؤمنين ، فأقام محمد بن جعفر أشهرا ، وليس له من الأمر إلا اسمه ، وقد أساء هو والحسين بن حسن إلى أهل مكة فإعتدوا على أموالهم وأعراضهم .

فلما علم المأمون بذلك طلب من هرثمة بن أعين القضاء على العلويين فى مكة ، فأرسل الأخير جيشا قاتل العلويين حتى هزمهم . لكن محمد بن جعفر الصادق طلب الأمان له ومن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤوا ، على أن يتنازل علانية عن الخلافة للمأمون ، فأجيبوا إلى طلبهم ، وبذلك دخلت جيوش العباسيين مكة ، وعادت الحجاز إلى الدولة العباسية .

وفوق ذلك فقد خرج علويا آخر فى بلاد اليمن فى سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤ م ، فى وقت ثورة أبى السرايا ، اسمه إبراهيم بن موسى الكاظم ، من أحفاد جعفر الصادق ،

واستولى على صنعاء ، وقد أساء التصرف حتى غلب عليه لقب الجزار لكثرة من قتلهم من أنصار المأمون فى اليمن ، كذلك أرسل بعض رجاله خلف قافلة للحج بإمرة أبى إسحق ابن هارون الرشيد ، فإعتدوا على الحجاج والتجار فسلبوهم أموالهم وملابسهم ، فلما علم أبو إسحق بذلك ، أرسل جيشا إلى اليمن لتأديب العلويين ، فأسر الكثير منهم وشرد العلويين فانتهت بذلك الحركات العلوية فى اليمن .

٣- المأمون واختيار على لولاية العهد :

مما لا شك فيه أن الخليفة المأمون قدر خطورة ثورات العلويين على حكمه ، ومن ثم فقد قرر أن يختار لولاية العهد رجلا من العلويين للحد من خطورتهم على حكمه . ففى سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦ م بايع المأمون لولاية عهده أبا الحسن على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ولقبه بالرضا من آل محمد ، وزوجه ابنته أم حبيبة ، ولمحمد بن على بن موسى ابنته الأخرى أم الفضل ، وكتب بذلك إلى سائر أقاليم الدولة العباسية . وقد تبع ذلك بأن أمر المأمون بطرح السواد ولبس الخضرة . ويبدو أن الفضل بن سهل كان له تأثير كبير على المأمون فى إختياره لعلى الرضا ، لأن الفرس يفضلون بأن يكون خليفة المسلمين علويا .

ولا شك أن تلك الخطوة التى أقدم عليها المأمون قد زادت من حدة انقسام أهل بغداد ، ولا سيما عندما بلغهم خبر مقتل هرثمة بن أعين الذى ما أن انتهى من القضاء على الفتن الداخلية حتى اتجه إلى مرو ، لكى يطلب من المأمون أن يعود إلى بغداد دار خلافة آبائه ، ليتوسط ملكه ويشرف على أطرافه و ليطلع الخليفة المأمون على استياء أهل بغداد من الحسن بن سهل والى بغداد ومناطق واسعة فى فارس وبغداد والبصرة والكوفة وغيرها ، فما كان من الفضل بن سهل إلا أن أسرع وأفهم المأمون قبل وصول هرثمة أن

المسئول عن هذه الإضطرابات التى حدثت فى الدولة العباسية هو هرثمة ، بما فيها فتنــة أبى السرايا ، فصدق المأمون كلامه وأمر هرثمة بالعودة ، وأراد الأخير أن يدافع عن نفســه ، ولكن الفضل قبض عليه بموافقة المأمون ، وسحب بين يديه ، ثم أمر المأمون بقتلــه فى ذى القعدة ٢٠٠هـــ / يونية ٨١٦ م .

وبعد ذلك انقسم أهالى بغداد على أثر مبايعة المأمون لعلى الرضا قسمين : قسم قـال نبايع ونلبس الثياب الخضراء ، وقال القسم الآخر : بل نبايع ولا نلبس الثياب الخضراء ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس ، ثم قامت فتن فى بغداد : مثل فتن الجند لطلب الأرزاق ، فقد حاربوا الحسن بن سهل وطردوا رجاله من بغداد ، ووصفوا الفضل بأنه مجوسى ، ممـا اضطره إلى الفرار إلى واسط ، وعاد الفضل بن الربيع وخازم بن خزيمة ، وتكلم النـــاس بخلع المأمون .

فى أول المحرم سنة ٢٠٢ هـــ/ ٢٤ يوليو ٨١٧ م بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدى ، وبايع له بالخلافة سائر بنى العباس فى بغداد ، كما بايعوا لإبن أخيه إسحق بـــن موســى الهادى من بعده . وقد تلقب إبراهيم بالمبارك ، ودانت لإبراهيم الكوفة . وبـــالرغم مـــن ذلك فلم تستتب الأمور لإبراهيم فقد ثارت فتنن كثيرة فى بغداد ، وعندما تيقن المــأمون من خطورة الموقف فى بغداد ، فإنه جد فى المسير إليها بعدما دبر مقتل الفضل بن ســـهل بالإيعاز إلى جماعة قتلته وهو فى الحمام فى أوائل شعبان سنة ٢٠٢هـــ/ ٨١٨ م .

ويروى المورخون أن على الرضا قد توفى أثناء تحرك المأمون إلى بغداد ، عند مدينـــة طُوس وأُشيع أن الأخير قد دس له السم فى العنب ، فدفن علىّ الرضا فى جوار هـــارون الرشيد و لم تلبث أن قامت حول مقامه مدينة جديدة وهى مدينة مشهد التى حلت محـــل طوس القديمة ، وهى تعتبر اليوم من أهم الأماكن الشيعية المقدسة بعد كربلاء .

تابع المأمون سيره حتى وصل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤هـ/ أغسطس ٨١٩م ، فعفا عن إبراهيم بن المهدى والفضل بن الربيع ، ، وقد أقبل الناس على مبايعته ، فعزل الحسن ابن سهل ، وأمر الناس بلبس السواد ، وولى طاهر بن الحسين على خراسان سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠ م .

٤- ثورة الأقاليم:

مما لاشك فيه أن غياب المأمون عن بغداد قد أضعف السلطة المركزية فقامت كثير من الفتن فى أرجاء الدولة العباسية ، وقد شجع على استفحال هذه الفتن تهاون ولاة الأقاليم والعمال بمصالح الناس ، فأرهقوهم بالضرائب والأعباء المالية مما شجعهم على التمرد والثورة ومنها ثورة الزط ، وكلمة الزط هى تعريب للفظ "جت" الفارسى . والزط خليط من الشعوب أقرب إلى الغجر ، نزحوا أول أمرهم من شمال غرب الهند ، فسكنوا شواطىء الخليج العربى . واستغلوا الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاستولوا على البصرة وعاثوا فيها الفساد.

على أن المأمون قد أرسل عدة حملات ضد الزط بعد عودته إلى بغداد فى سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م ، ٢٠٦هـ/ ٨٢١م لكن هذه الحملات لم تتمكن من القضاء على خطر الزط الذين استمروا فى عبثهم حتى خلافة المعتصم الذى أرسل حملة ضدهم سنة ٢١٩هـ/ ٨٤٣م فأبادت معظمهم .

ثورة نصر بن شبث :

أما فى الجزيرة وشمال الشام فقد قامت القبائل العربية بثورة بزعامة نصر بن شبث، فقد إستاء من مقتل الأمين و إزدياد النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية وقد تمكن من هزيمة

قائد المأمون طاهر بن الحسين فالتف حوله بعض العلويين وطالبوه بنقل الخلافة إليهم لكنه رفض ذلك ، وفى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٢٥ م إستطاع عبد الله بن طاهر بن الحسين والى الجزيرة والشام ومصر أن يجبر نصر على طلب الأمان والإستسلام .

الإضطرابات فى مصر :

أما فى مصر فقد إضطربت الحالة السياسية بسبب الفتنة بين الأمين و المأمون فإنقسم أهلها إلى ثلاثة أفرقاء : فريق يؤيد الأمين ، وفريق ثان يؤيد المأمون ، وفريق ثالث بزعامة السرى بن الحكم وأولاده يعمل لحسابه الخاص ، ويضرب الفريقين بعضهما ببعض .

وقد صادف أن قامت ثورة فى الأندلس المعروفة بثورة الربض ضد أميرها الحكم الأول الذى نجح فى إخماد تلك الثورة وتشريد القائمين بها . ففر فريق من الثوار الأندلسيين إلى أفريقية حيث إستقروا فى مدينة فاس عاصمة دولة الأدارسة بينما فر قسم آخر فوصلوا إلى شواطىء الإسكندرية فنزلوا بضواحيها فى أوائل عهد الخليفة المأمون .

إستغل هؤلاء الأندلسيون إضطراب الأحوال فى مصر وإستولوا على مدينة الإسكندرية سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، ولما إستقرت أحوال المأمون فى بغداد أرسل عن طريق ولاته فى مصر الجيوش تلو الجيوش لتخوفه من كل أثر يمت بصلة إلى بنى أمية فى الأندلس ، لكن دون جدوى .

قرر المأمون أن يرسل ضدهم عبد الله بن طاهر بن الحسين وذلك فى سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٦ م ، فتمكن بن طاهر أن يقضى على المنشقين فى مصر فإستعاد الفسطاط حيث سلم له عبيد الله بن السرى ثم تمكن من هزيمة العرب . ثم قصد عبد الله بن طاهر إلى

الإسكندرية فى سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وحاصرها بضع عشرة ليلة ، فخرج أهلها بالأمان وصالح عرب الأندلس على أن يسيرهم من الإسكندرية وتعهدوا بألا ينزلوا فى أرض تابعة للخلافة العباسية ، فاتجهوا إلى جزيرة كريت التابعة للدولة البيزنطية وإستولوا عليها وإستمر حكم المسلمين لكريت حتى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م عندما إستردها البيزنطيون .

لكن عرب مصر لم يسكتوا عن الفتنة بعد رجوع عبد الله بن طاهر ، فأرسل المأمون ضدهم الجيوش وإستطاع إخماد ثورقم ، أما القبط فقد ثاروا أيضاً فى مصر ذلك أن عيسى بن منصور تطرف فى فرض الجزية على أقباط مصر مما جعلهم يثورون ثورة خطيرة عرفت بثورة " القبط " شملت معظم أنحاء الوجه البحرى سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١م، وإستمرت ثورقم ثمانية أشهر إضطرت الخليفة المأمون وقتئذ أن يتوجه بنفسه إلى مصر وقد ألقى تبعة الثورة على الوالى .

خرج المأمون من بغداد إلى دمشق ثم وصل إلى مصر سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م ومعه أخوه المعتصم و أولاد أخيه الواثق والمتوكل فحارب المأمون القبط فى الصعيد والدلتا فقتل منهم عدداً كبيراً وحُولت الكنائس إلى مساجد وأُلبسوا العلامات المميزة ومن حينئذ أُذل القبط فى جميع أرض مصر وضعفت شوكتهم ، فلم يقدر بعدها أحد على الخروج ولا الثورة على السلطان وغلب المسلمون على القرى بعد أن كانوا يسكنون فى المدن فأقر المأمون الأمن فى مصر فقد أقام فيها ٤٩ يوماً تنقل فى أنحاء كثيرة منها .

ثورة بابك فى بلاد فارس :

قامت ثورة فى بلاد فارس ، فى جبال القوقاز ، هزت الدولة العباسية فى عهد المأمون وإستمرت حتى عهد المعتصم ، تلك الحركة التى قام بها بابك الخُرمى منتهزاً النزاع

بين الأمين والمأمون ، هذه الحركة التى أباحت النساء وسائر المحرمات بقصد إحياء الدولة الفارسية القديمة والعودة إلى ديانة الفرس القديمة ، وقد أطلق عليها إسم الخرمدينية ، نسبة إلى خرم ، أى الشهوة ، لأن أتباعها كانوا يدينون بما يريدون ويشتهون وأطلق على أتباعها المحمرة ربما لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة .

وعمد بابك الخرمى بعد أن كثر أنصاره إلى قطع الطرق ونشر الفساد . فأرسل الخليفة المأمون وهو بخراسان سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦ م حملة لقتاله لكنها فشلت نظرا لإزدياد أتباع بابك .

ولا ريب أن المأمون كان منزعجا من الفرقة الخرامية طوال عهده وحاول القضاء عليها حتى سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م عندما تمكن المعتصم فى أن يبدد شملهم ويوقع ببابك نفسه أسيرا سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م فقتل وصلب بباب مدينة سامراء ، وبسبب إنتصار الإفشين قائد المعتصم فإن الأخير توجه بتاج من الذهب مرصع بالجوهر وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، تشابك بالذهب ، وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم .

سياسة المأمون الخارجية :

أما بالنسبة للسياسة الخارجية فى عهد المأمون فيمكن القول أن الدولة العباسية قد سارت على سياستها الودية مع الإمبراطورية الرومانية ، إذ أرسل لويس النقى بن شارلمان إلى البلاط العباسى سفارة إلى المأمون فى سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م يؤكد فيها حسن العلاقات العباسية الرومانية .

أما سياسة المأمون تجاه الدولة البيزنطية فقد اتسمت بالعداء ومواصلة الجهاد ، فقـــد استغل الخليفة المأمون فرصة الثورة الداخلية التى قادها توماس الصقلى ضـــد الإمـــبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن سنة ٢٠٦هـــ/ ٨٢١م ، فأمد الثوار بالمال والسلاح للإســـتيلاء على القسطنطينية واسقاط الحكم ، لكن الإمبراطور علم بتلـــك الإتصـــالات العباســـية الصقلية فقتل توماس الصقلى على أبواب القسطنطينية سنة ٢٠٨هـــ/ ٨٢٣م .

إلا أن المأمون لم يكتف بهذا بل جرّدّ جيشاً سنة ٢١٥هـــ/ ٨٣٠م ، واتجـــه لغـــزو أراضى الدولة البيزنطية ، فنزل طرطوس على الحدود البيزنطية ، ومن هذا الثغـــر واصـــل حملته فى أراضى البيزنطيين يفتح الحصون ، ويأسر الأهالى . وتكررت غزوات المـــأمون فى سنة ٢١٦هـــ/ ٨٣١م ، و٢١٧هـــ/ ٨٣٢ م حتى طلب إمبراطور الدولة البيزنطية الهدنـــة فقبلها المأمون ، وكان الأخير فى بعض الأحيان يسند قيادة تلك الحملات إلى ابنه العبـــاس وفى سنة ٢١٨هـــ/ ٨٣٣ م خرج المأمون لغزو الأراضى البيزنطية شمالى طرطوس لكنـــه أصيب بالحمى وتوفى هناك .

النهضة الفكرية فى عهد المأمون :

ازدهرت النهضة الفكرية فى عصر الدولة العباسية خاصة فى عهد الخليفـــة عبـــد الله المأمون ، لإهتمامه بالعلم ومشاركته فى المجالس العلمية ، حتى قيل أنه أعلم الخلفاء بالفقـــه وعلم الكلام وأنه فيلسوف الخلفاء وحكيم بنى العباس .

اهتم المأمون بأمر ترجمة كتب العلماء من غير العرب ، حتى تُرجم من الكتب العلمية غير العربية ما لم يترجم مثله من قبل ، فكان ما أداه المأمون لتعريب الثقافة لا يقل عمـــا أداه عبد الملك بن مروان لتعريب الدواوين ، وقد أنشأ المأمون دار الحكمة ، أو دار العلم

سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠ م جمع فيها عدداً كبيراً من النساخ والمترجمين ، وألحق بها مكتبة عرفت بخزانة المأمون ، أُعتبرت أكبر مكتبات بغداد .

ومن ناحية أخرى ، فقد اهتم المأمون بإرسال البعثات العلمية إلى القسطنطينية وقبرص للبحث عن الكتب العلمية فى شتى فروع العلم ، ونقلها إلى اللغة العربية ، كما شجع المناظرة بين العلماء . وبفضل توسع الثقافة فى عهد المأمون ، أصبحت اللغة العربية لساناً حضارياً ، وقد صحب هذا التوسع العلمى ظهور صناعة الورق ، ويقال إنها أخذت من الصين ، وقبل ذلك كان يكتب على ورق البردى الذى استعمل على يد المصريين .

ومما لا شك فيه أن هذا التوسع العلمى والحركة الثقافية الواسعة النشطة فى عهد المأمون قد صحبها ظهور جماعة من العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين وحكموا عقولهم فى البحث ، فانتهى إلى ظهور أكثر من مذهب من المذاهب الفكرية ، لكن المسألة الهامة التى شغلت الباحثين هى : هل الإنسان مسير أم مخير ؟ ومن ثم هل الإنسان حر الإرادة ومسؤول عن عمله أم انه مسير بحكم القدر ؟ وقد عرف الذين قالوا بأن الإنسان حر الإرادة باسم القدرية أو المعتزلة ، أما الذين قالوا بعكس ذلك فقد عرفوا بالسلفية أوالجبرية .

المعتزلة :

ظهرت هذه الفرقة فى بداية القرن الثانى الهجرى فى مدينة البصرة على شكل حلقة كانت تنعقد حول الحسن البصرى (٢١-١١١ هـ) وكان من موالى زيد بن ثابت وكان لواصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) اليد الطولى فى وضع اسسها بعد أن اعتزل واصل حلقة الحسن البصرى بسبب أن واصل كان يرى أن مرتكب الذنب الكبير ليس مؤمناً ولا كافراً وإنما فاسق ، بينما يجعله الحسن البصرى منافقاً ، وقد انحاز الخليفة المأمون

إلى المعتزلة ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى أن المأمون كان بارعا فى المناقشة والجدل ، وقــد وقع المأمون تحت تأثير عدد كبير من أئمة المعتزلة ، منهم : القاضى أحمــد بــن أبى دؤاد (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤ م) وهو الذى جعله يعلن احتضانه لفرقة المعتزلــة ، ومــن أكــبر علمائهم وصاحب المقالات فى مذهبهم وكان استاذ المأمون أبو اسحق إبراهيم البلخــى المعروف بالنظام (ت ٢٢٠ أو ٢٣٠هـ/ ٨٤٠ أو ٨٥٠ م) ، وكانت المعتزلة مــن دون الفرق الإسلامية الأخرى تحتكم فى عقائدها للعقل ، إذ هى من الفرق الجدليــة ، وسمــى اتباعها بالمتكلمين ، فالعقل هو الأساس من دون القياس أو الإجماع ، وقد تركزت أقــوال المعتزلة فى المقام الأول حول القرآن ، فأعلنوا أنهم مع تمسكهم بآيات التتريه وشرحهم لهــا فإنهم يقولون أن القرآن بالرغم من أنه أوحى به فإنه كلام الله تعالى ، له صفة فعل مخلــوق وأن من يقول بعكس ذلك فقد أنقص التوحيد . وقد قامت المعتزلة على خمسة أصول :

١-القول بالتوحيد وهو أن الله واحد لا شريك له .

٢-القول بالعدل وهو أن الله لايحب الشر والفساد .

٣-القول بالوعد والوعيد : وهو أن الله صادق فى وعده ووعيده لا يغفــر إلا بعــد التوبة.

٤-القول بالمترلة بين المترلتين : وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر لكنــه فاسق .

٥-الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكــم الله على كل من خالف أمره أو نهيه ، سواء كان كافراً أو فاسقاً .

خلق القرآن :

كان المأمون من المؤيدين للمعتزلة ، فازداد نفوذهم فى بلاطه ، لكن المسألة الخطــيرة التى أثارها المعتزلة وكان لها أثراً كبيراً فى الأحداث السياسية والإجتماعية والفكرية ، هى

مسألة خلق القرآن ، فقد قال المعتزلة : أن القرآن مخلوق ، وذلك على عكس ما قيل من أزليته أو قدمه ، وأن قدمه قدم الله ، وقالوا : إنه من المحال أن يكون القرآن صفة من صفات الله ، أن صفاته وحدة لا تتجزأ ولا تتغير ، فى حين أن الله فيه : أمر ونهى ، وعد ووعيد ، ولدى المعتزلة أدلة عقلية منها : أخبار الطوفان وقصة موسى مع فرعون ، ومولد عيسى وذكر معارك بدر وفتح مكة ومعركة حنين وحوادث تاريخية فى أزمنة متتالية ، فهو من أجل ذلك محدث .

وقد أخذ المأمون برأى المعتزلة ، وأراد أن يفرضه على الناس ، فبعث فى سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣ م كتابا إلى والى بغداد إسحق بن إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين فى مسألة القرآن ، وأن يعاقب كل من يقول بأن القرآن أبديا أو أنه ليس بمخلوق ، وهو ما عرف بالمحنة ، وقد استمرت هذه المحنة فى عهده وعهد خلفه ، إلى نهاية العصر العباسى الأول ، كذلك أمر المأمون بعقد مجالس للمناظرة .

وكان الفقيه أحمد بن حنبل ممن امتحنوا فى خلق القرآن فقد كان السؤال الموجه له : ما تقول فى القرآن ، فقال ابن حنبل كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، لا أزيد عليها ، ثم قال له : ما معنى قوله : ليس كمثله شيء ، و هو السميع البصير ، قال أحمد : هو كما وصف نفسه . و قد علق المأمون على قول إبن حنبل بأنه عرف فحوى مقالته ، و إستدل على جهله .

ويذكر المؤرخون أن المأمون قد طلب من واليه فى بغداد وضع أحمد بن حنبل فى الحديد وتوجيهه إليه فى طرسوس حيث كان المأمون يقاتل البيزنطيين ، أما المعتصم الذى خلف المأمون فقد أساء إلى أحمد بن حنبل ففى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م أعاد إمتحانه فلما لم يجبه إلى القول بخلق القرآن جلده حتى غاب عن وعيه ، و تقطع جلده كذلك امتحن إبن سحنون صاحب المدونة المعروفة بإسمه فى دولة الأغالبة فى بلاد المغرب .

ولقد أصبح هذا الإمتحان الدينى آداة سياسية فى يد الخلافة العباسية بقصد إظهار الولاء للخليفة العباسى وإمتد إلى أقاليم الدولة العباسية .

وأخيرا فإن المأمون كان يتمسك بالمذهب السنى على أساس أنه من سلالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان المأمون نفسه يميل صراحة إلى مذهب أبى حنيفة باعتباره المذهب الذى أكثر من الأخذ بالرأى وحكم العقل ، وليس بالحديث فقط .كذلك لم يمنع المأمون ظهور مذهبين سنيين كبيرين هما مذهبا : محمد بن إدريس الشافعى (ت ٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م) ، و أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) بحيث أن الأول جاء إلى مصر فى صحبة أحد ولاته .

كذلك فإن المأمون لم يعمل على القضاء على فرق الشيعة خاصة فرقة الجعفرية المسماة أيضا بالإمامية أو الإثنى عشرية بسبب إنتماء هذه الفرقة لجعفر الصادق الذى توفى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م الذى وقف موقف التأييد من قيام الدولة العباسية حتى أن الخليفة المنصور هو الذى سماه الصادق أو الفاضل .

وفى عهد المأمون إستولى المسلمون على جزيرة كريت التى غزيت فى عهد معاوية كما فتح بعضها فى عهد الوليد ، وغزاها حميد بن معيوف فى عهد الرشيد سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م ، ثم تم فتحها فى عهد المأمون سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م على يد الأندلسيين الذين طردهم عبد الله بن طاهر بن الحسين من الإسكندرية بعد أن زودهم بالسفن والعتاد. كذلك فتح بنو الأغلب حكام أفريقية جزيرة صقلية فى أيام المأمون سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م . و أخيرا توفى المأمون سنة ٢١٨ هـ و خلفه أخوه المعتصم .

المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)

تولى أبو إسحق محمد المعتصم بالله ولاية مصر والشام فى عهد أخيه المأمون وبقـى فى الخلافة منذ وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م حتى وفاته سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م وقد رفض غالبية الجند فى بداية الأمر مبايعة المعتصم بالخلافة وأرادوا تولية العباس بن المأمون لكن الأخير بايع عمه بالخلافة فحذا الجيش حذوه .

سياسته الداخلية :

أ - المعتصم و المعتزلة :

واصل المعتصم سياسة أخيه المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن والإمتحان به لا عن إقتناع و تفكير وإنما تنفيذا لوصية المأمون التى جاء فيها : " وخذ بسيرة أخيك فى القرآن " .

وقد تشدد المأمون فى تعذيب وإهانة العلماء والفقهاء وكل من رفض القول بخلق القرآن وكان أحمد بن حنبل ممن عذب على يد المعتصم وعندما فشل فى إقناعه على مدى ثلاثة أيام جلد ثمانية و ثلاثين سوطا حتى سال منه الدم وتعددت جراحه .

ب - المعتصم و العلويين :

اتسمت سياسة المعتصم بالعداء لأبناء عمومته من العلويين كمن سبقه من الخلفاء العباسيين ، ومن ثم تخلص من محمد الجواد بن على الرضا الذى كان المأمون قد زوجه إبنته أم الفضل .

كما أرسل عبد الله بن طاهر بن الحسين والى خراسان عدة حملات ضد محمد إبن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على الذى أعلن الدعوة إلى الرضا من آل محمد فاجتمع حوله كثيرون فى طالقان بخراسان . واستطاع ابن طاهر هزيمة محمد بن القاسم فى سنة ٢١٩هـ/ ٨٣٤ م وسلمه إلى المعتصم الذى أمر بحبسه فى سامراء ، غير أن محمد بن القاسم هرب من سجنه ، و لم يعرف عنه شىء منذ ذلك الوقت ، الأمر الذى جعل الكثيرين من أتباعه الزيدية يقولون بإمامته فى ناحية الكوفة وجبال طبرستان ويزعمون انه المهدى المنتظر ، وأنه حى لم يمت .

جـ – المعتصم وثورة الزط :

واجه المعتصم مشكلة الزط فى جنوب العراق بكل حزم وقوة ، فقد أرسل المعتصم قائده عجيف بن عنبسة سنة ٢٢٠هـ/٨٣٣ م للقضاء على الزط ، فسد عجيف الأنهار عليهم ، وأحاط بهم من جميع الجهات ، وبعد قتال استمر قرابة تسعة أشهر اضطروا إلى طلب الأمان بعد أن قُتل منهم فى معركة واحدة ثلاثمائة رجل و أُسر منهم خمسمائة رجل وبلغت عدة القبائل المستسلمة ١٢ ألف من المقاتلة و ٢٧ ألف من النساء والصبيان وشُحنوا جميعاً فى سفنهم فدخلوا بغداد فى عرض بديع ، ثم ضرب أعناق الأسرى بعد ذلك ، وأمر بنفى الباقين إلى آسيا الصغرى فى قلعة عين زربة على الحدود البيزنطية وفيها أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١هـ/ ٨٨٥ م ، فشردوا فى كثير من البلدان الأوربية ، فعرفوا باسم الغجر .

د – إهتمام المعتصم بإصطناع الأتراك:

أهم شىء يتميز به عهد الخليفة المعتصم بالله هو شغف هذا الخليفة بإقتناء الجنود الأتراك وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر (أى نهر جيحون) مثل سمرقند وفرغانة ، وأشروسنة والشاش ، وخوارزم وحتى فى موطنهم الأصلى فى التركستان وساعد على جلب الأتراك أن الترك كانوا متعودين على بيع أولادهم ، وعرفوا للعرب ببدو العجم ،

وجلبوا إلى بغداد عن طريق إرسال ولاة الأقاليم التركية تُركاً ضمن الجبايات التى كانت تُرسل إلى بغداد ، أو عن طريق هجرة كثير من الأتراك إلى بغداد بعد فتح بلادهم لتحسين أحوالهم المعيشية ، أو عن طريق أسرهم فى الحروب ، ويبدو أنهم بدأوا يعملون كجند مرتزقة فى عهد المأمون و سُجلت أسماؤهم فى الديوان ، إلا أن المعتصم هو الذى كون منهم جيشاً بحيث صاروا غالبية جنده وبلغ ما إشتراه منهم سبعين ألف مملوك إتصفوا بالشجاعة والقوة البدنية فضلاً عن جمال الصورة ويقال أنه لا يوجد مثل التركى فى ركوب الخيل ورمى السهام أو الحراب من على ظهورها وأنه يصيب أى شىء ، وكان الخليفة المعتصم يرى أن ما فى الدنيا أشجع ولا أثبت أقداماً على الأعداء من الأتراك ، ومن الجدير بالذكر أن الترك لم يتعصبوا لديانتهم السابقة المعروفة بالسمنية وهى عبادة إله السماء تنكرى مثلما فعل الفرس فإعتنق الأتراك الإسلام فى أيام الأمويين ولعل طبيعتهم الحربية جعلتهم يقبلون على الإسلام بسبب مبدأ الجهاد الذى أصبحوا يحرصون عليه .

وقد إمتلأت بغداد فى عهد المعتصم بأولئك الجنود الترك وعرفوا بالمشارقة لكى يتميزوا عن العرب الذين كانوا يُوخذون من أحواف مصر وسموا بالمغاربة . فكان المشارقة هؤلاء أشبه بجيش خاص للخليفة المعتصم الذى أوجد لهم زياً خاصاً بهم .

وكان النزاع بين العرب و الفرس من الأسباب التى دفعت المعتصم إلى الإعتماد على الأتراك والأكثر من ذلك أن المعتصم إتخذ خطوة أكثر جرأة نحو العرب فهو أول خليفة أسقط أرزاق و أعطيات العرب من الديوان التى كانوا يأخذونها منذ أيام عمر بن الخطاب و يبدو أن ذلك تعلق بعرب مصر وحدهم .

هـ- المعتصم و بناء مدينة سامراء :

أسكن المعتصم هؤلاء الجنود الأتراك ببغداد وكان هؤلاء المماليك الذين ألبسهم المعتصم أفخر الملابس وسمح لهم بركوب الخيل فى طرقات بغداد مما أدى إلى اصطدامهم

بالناس ، فأثار ذلك مشاجرات بينهم وبين أهلها وعندما تأذى منهم الناس خاصة حينما زاحموهم فى دورهم وتعرضوا للنساء شكى أهل بغداد إلى المعتصم تعسف الأتراك .

خشى المعتصم من أن تحدث فتنة فى بغداد بين الأتراك من ناحية وأهل بغداد العرب والفرس من ناحية أخرى ففكر فى إنشاء حاضرة جديدة له تكون مقرا لجنده الأتراك ، وإختار المعتصم مكانا بعيدا عن بغداد حوالى ستين ميلا جهة الشمال .

بدأ المعتصم فى تخطيط مدينته الجديدة التى إتخذها عاصمة للخلافة العباسية بدل بغداد سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٧ م عرفت بإسم : سامراء أو سامرا وهو إسم قديم لمدينة عتيقة له أصول نبطية أو أرامية ، لكن المعتصم أوجد لها إسما عربيا فسماها " سر من رأى " من السرور أى السعادة وإن غلب عليها إسم المعسكر .

و- المعتصم و طغيان الأتراك:

مما لا شك فيه أن إصطناع المعتصم للأتراك ورفعه من قدرهم أن صار بأيديهم مستقبل الخلافة فقد إصطنع منهم قوادا بلغوا درجة كبيرة من النفوذ فى الدولة العباسية، ومن هؤلاء : الإفشين الذى قضى على ثورة بابك الخرمى فكافئه المعتصم بإستقبال عظيم وخصص له فى كل يوم بفرس وخلعة ، فحدثته نفسه بالإستقلال ببلاده أشروسنة عن المعتصم الذى أحس بمؤامرته فقبض عليه وحبسه إلى أن مات سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م .

وهذا يجرنا إلى ذكر أيتاخ أحد قواد الأتراك الذين بلغوا مرتبة رفيعة فى عهد المعتصم الذى إستمر على مكانته طوال عهده إلى أن قتل أوائل عهد الواثق على يد أحد رجال جعفر الكردى الذين قاموا بثورتهم ضد المعتصم سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م . وأشناس الذى بلغ هو الآخر منزلة رفيعة عند الخليفة المعتصم حتى أجلسه على كرسى وتوجه وبقى فى عهد الواثق على مكانته هذه حتى توفى سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

ز – المعتصم و الثورات العربية :

مما لا شك فيه أن إصطناع المعتصم للاتراك وتفضيلهم على العرب والفـــرس قــد أثارت الغيرة فى نفوس العرب فتحركت جماعة من هؤلاء بقيادة عجيف وأغرت العبـــاس ابن المأمون بالخروج على عمه وقد إتفق العرب الذين شاركوا فى هذه المؤامرة على قتــل الخليفة المعتصم والإفشين وأشناس وحددوا موعداً لذلك أثناء توزيع الغنائم التى يســتولى عليها المسلمون من البيزنطيين فى موقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـــ / ٨٣٨ م .

ولكن أخبار هذه المؤامرة تسربت إلى الخليفة المعتصم بعد أن لعبت الخمــــر بـــرأس العباس وبعض القواد العرب فأفضوا بسر المؤامرة ، فما كان من المعتصم إلا أن وضع إبــن أخيه العباس وعجيف تحت المراقبة ومنع عنهما الماء إلى أن ماتا .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن المعتصم أصبح أمام الأتراك مستضعفاً قليل الحيلـــــة وأن قيام العرب بثوراتهم ضد المعتصم قد أدى إلى إزدياد نفوذ القواد الأتراك ، فــأمعنوا فى إقصاء العرب والفرس تدريجياً وعملوا على إنتزاع السلطة حتى غدا خلفاء العباســـيين فى سامراء ألاعيب فى أيدى القواد الأتراك .

سياسته الخارجية :

أما حرب الثغور فى خلافة المعتصم فكانت أشبه بفتوحات فى بلاد الـــروم لم تكــن لأحد من الخلفاء العباسيين السابقين حيث خاض بنفسه ضدهم حروباً قويـــة وقيـــل فى أسباب غزو المعتصم لأراضى الدولة البيزنطية أن الإمبراطور تيوفيل قد خرج فى مائة ألــف إلى بلاد المسلمين فهاجم شمال الشام والجزيرة منتهزاً إنشغال المعتصم بـــالفتن والثـــورات الداخلية فى الدولة العباسية فهاجم مدينة زِبَطْرَة سنة ٢٢٣ هـــ / ٨٣٨ م وهـــى أقـــرب الثغور الإسلامية إلى البيزنطيين ويبدو أنها كانت مسقط رأس أم المعتصــــم ، قُرب درب

الحدث المشهور الذى كانت تخرج منه غزوات المسلمين ضد الروم فدمرها تيوفيل وأشعل فيها النيران وقتل وأسر من فيها ، ثم مضى إلى ملطية وغيرها من الحصون الإسلامية القريبة، وقد بالغ فى الإنتقام من المسلمين .

ومما لا شك فيه أن هذا الهجوم الذى قام به تيوفيل على الأراضى الإسلامية قد أغضب الخليفة المعتصم ، خاصة أن مدينة زبطرة كان لها مكانة خاصة فى قلبه ، لذلك ما أن فرغ من حرب بابك الخرمى ، وتخلص من الأفشين ، حتى قصد البلاد البيزنطية سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨ م على رأس جيش كبير ، فهاجم عمورية بوصفها مسقط رأس والد تيوفيل من ناحية ، ومن أحصن بلاد البيزنطيين من ناحية أخرى . وانتهت محاصرة عمورية بافتتاحها عنوة ، وكانت لها أهمية دينية عند البيزنطيين ، حتى أعتبرت عين النصرانية إذ كانت محصنة منذ أيام الأباطرة الأوائل . عاد بعد ذلك المعتصم إلى سامراء ظافراً فاستقبل استقبالاً حافلاً ، فامتدحه أبو تمام بقصيدة شهيرة مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

هارون الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ)

بويع للواثق بالله ، المكنى بهارون فى اليوم الذى توفى فيه أبوه المعتصم ، فى يوم الخميس ١٨ من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ /٥ يناير سنة ٨٤٣ م فاستمر الواثق فى الخلافة إلى آخر القرن الأول من حكم الخلفاء العباسيين إلى سنة ٢٣٢هـ/ ٨٧٤م . وقد انتهج الواثق سياسة أبيه فى اصطناع الأتراك ، فشغلوا المناصب الكبيرة فى دولته حتى أنه ولى القائد أشناس السلطة وتوج بتاج مرصع بالجواهر فى سنة ٢٢٨هـ/٨٤٢م .

سياسة الواثق الداخلية :

لم يقع فى أيام الواثق من الحوادث المشهورة ما يؤثر ، لكن عهده شهد ثورات داخليـة ومنها .

أ- ثورة العرب :

ثارت القبائل القيسية فى دمشق ضد الخليفة الواثق فى بداية حكمه ، حيث حـاصرت القيسية أمير دمشق ، فأرسل إليهم الواثق رجاء بن أيوب ، ومعه قواد من الأتراك ، فأخمد فتنتهم ، وقتل منهم خمسين ألفا وخمسمائة رجل فى مرج راهط ، ثم عاد إلى فلسطين .

وتمرد بنو سليم أقوى القبائل العربية فى الحجاز ، وتمرد بنو مرة وبنو فرازة فى شمـال المدينة ، وعرب بنى نمير وتميم فى اليمامة ، فما كان من الواثق إلا أن أرسل إليهم جيشـا بقيادة القائد التركى " بغا الكبير " فأغار على قرى بنى سليم ، وقتل منهم نحو الخمسـين وأسر مثلهم ، وقبض على ألف رجل من الذين أثاروا الشغب والفساد وحبسهم فى سجن المدينة ، وانتقل بغا الكبير بعد ذلك لإخماد فتنة بنى مرة ، وقبيل وصوله إليهم فروا مـن وجهه منتشرين فى الصحراء مما جعل جهوده تبوء بالفشل للقضاء عليهم .

وفى سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦ م استطاع القائد بغا الكبير هزيمة بنى نمير فى بلاد اليمامـة بعدما كثر فسادهم ، فأسر منهم جماعة وعاد بهم إلى سامراء عاصمة الخلافة العباسية .

ب- التعصب للمعتزلة :

حينما تولى الواثق ، عادت محنة القرآن ، فقد تشدد الواثق فى القول بخلق القرآن ، مما أثار الرأى العام ضده ، وكان على رأس الساخطين على الواثق بسبب تعصبه للمعتزلـة ، أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى ، الذى أخذ بمبدأ " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر " أى أنه أجاز الخروج على الحاكم إن انحرف وجار . وكان أحمد الخزاعى قد ثار من قبل

على الخليفة المأمون الذى لم يستطع القضاء عليه لإختفائه لكن والى بغداد إسحق بن إبراهيم استطاع أن يقبض عليه ويقدمه للواثق ، فقام الأخير بقتله وحملت رأس أحمد الخزاعى إلى بغداد فنصبت بالجانب الشرقى أياماً ، والجانب الغربى أياماً . وعندما صُلب كتب الواثق ورقة علقت فى رأسه نصها : " هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك ، دعاه عبد الله الإمام هارون (الواثق) إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه ، فأبى إلا المعاندة ، فعجاه الله إلى ناره ، ووكل بالرأس من يحفظه ويصرفه عن القبلة " .

سياسته الخارجية :

كان الواثق على عكس سابقيه من الخلفاء العباسيين ، لم يحارب البيزنطيين ، مما يبين مرحلة هامة من مراحل الصراع معهم ، ولعل الحرب قد وضعت أوزارها بين العرب والبيزنطيين ، بسبب أن عصر فروسية العباسيين قد انتهى ، أو بسبب أن أم الواثق كانت جارية من الروم ، اسمها قراطيس ، أو أن هذا التغيير قد حدث نتيجة لتغير السياسة البيزنطية تجاه الدولة العباسية ، ففى السنة التى تولى فيها الواثق الحكم ، توفى تيوفيل فملكت بعده إمرأته تيودورا ، وابنها ميخائيل الثالث حيث أعادت أم الأخير عبادة الأيقونات ، ومن ثم إنغمست الدولة البيزنطية فى الفتن الداخلية .

ومن ثم إتفق الواثق مع البيزنطيين على فداء الأسرى بشكل لم يعرف له مثيل من قبل. فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م رسلا إلى الخليفة الواثق يسألونه : أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين ، فوافق الخليفة وإنتدب لهذه العملية أحد أحفاد مسلم بن قتيبة ومعه أحد الأتراك وإسمه خاقان الخادم فجاء المسلمون بأسراهم وكذا الروم وتم تبادل الأسرى فوق جسرين على نهر اللامس قرب طرسوس وتم الإتفاق على فداء كل نفس دون تفرقة بين فتى أو شيخ ، أو كبير أو صغير ، أو حتى مسلم ذمى . فبلغ من أفتدى من المسلمين ٤٥٠٠ شخص . كان من بينهم ٦٠٠ من نساء وصبيان .

وفى ٢٣ من ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ / ١٠ أغسطس ٨٤٧ م توفى الخليفة الواثق بالله الذى أعتبر آخر الخلفاء العباسيين العظام ، خاصة أنه لم يعين له ولى للعهد من بعده مما فتح المجال لسيطرة الأتراك على الخلافة العباسية . وبوفاة الواثق إنتهى العصر العباسى الأول أو العصر الذهبى للدولة العباسية و بدأ العصر العباسى الثانى .

العصر العباسى الثانى

(٢٣٢ - ٦٥٦ هـ)

يحسن بنا قبل أن نبدأ فى دراسة العصر العباسى الثانى أو ما يسمى بعصر سيطرة الأتراك وظهور الدول المستقلة أن نلقى نظرة عامة على العصر العباسى الأول الذى إستمر مائة عام تميزت فيه الدولة العباسية بالقوة ، فقد كان الخلفاء الأوائل حريصين على توفير الإستقرار و لم يتورعوا عن التنكيل بأبناء عمومتهم من العلويين حينما يستشعروا خطرا من جانبهم و لم يترددوا فى القضاء على بعض مصادر القوة فى الدولة متى رأوا أن هذا مصدر يهدد دولتهم ، كما دأب الخلفاء إرسال حملات عسكرية إلى مناطق الحدود مع الدولة البيزنطية وكثيرا ما قاد الخلفاء أنفسهم هذه الحملات وكان آخرهم المعتصم الذى فتح عمورية ، وكانت الدولة بالرغم من إتساعها فإن الخليفة العباسى كان يحكم دولته حكما مطلقا يرجع إليه الولاة فى كل الأمور وطوال العصر العباسى الأول فقد فشلت الحركات الإستقلالية عن الخلافة العباسية بإستثناء إستقلال الأمويين فى الأندلس ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى .

وبدأ الإنحلال يدب فى الدولة العباسية فظهرت عوارضه فى أطرافها نتيجة للخلل الذى اعترى قلبها ، فقد انصرف بعض خلفاء العصر العباسى الأول المتأخرين منهم إلى إقامة مجالس اللهو والشراب والغناء وانشغلوا بها عن النظر فى شئون الحكم تاركين ذلك إلى بعض أعوانهم وزراء كانوا أو قادة ، فاهتزت صورة الخلفاء ودخلت الدولة العباسية مرحلة جديدة من تاريخها وهى مرحلة العصر العباسى الثانى الذى اتصف بمميزات أهمها :

أ- سيطرة الأتراك:

سيطر الأتراك على الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى وإستفحل نفوذهم منذ عهد المعتصم و لم يقتصر هذا النفوذ على عاصمة الخلافة العباسية فحسب بل تعداها إلى الولايات العباسية الأخرى ، إذ أخذ الخلفاء العباسيون يمنحون قادتهم الأتراك الولايات مقابل مبالغ معينة يدفعونها للخلافة .

وعلى الرغم من أن المعتصم قد أنشأ عاصمة جديدة للدولة العباسية لإقامة الأتراك فيها حتى يسلم أهالى بغداد من شرهم ، إلا أن إزدياد نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وسيطرتهم على الخلافة أثار إستياء العرب والفرس فقاموا بثورات ضد الخلافة العباسية ، والتى إستمر بعضها خلف ستار التشيع علما بأن نفوذ الخراسانين فى العصر العباسى الأول كان قويا ، وبالرغم من ذلك لم يسيطروا سيطرة كاملة على الخلفاء العباسيين إلى حد عزلهم أو قتل خلفاء بنى العباس مثلما حدث فى العصر العباسى الثانى على يد الأتراك .

وقد شعر الخليفة المعتصم بخطر الأتراك عليه وعلى الدولة العباسية ودليلنا على ذلك حديث له مع أحد رجال أخيه المأمون الذى يبدى أسفه على إصطناعه الأتراك بقوله : "وأنا إصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار أمره ، وأشناس ففشل رأيه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيف فلا مغنى فيه " .

غير أن هذا اللوم الذى وجهه المعتصم لنفسه نتيجة لإستبداله الفرس والعرب بالأتراك قد جاء بعد أن إستشرى خطر الأتراك على الخلافة العباسية ، يؤيد ذلك أنه لما ولى الواثق أمسك الأتراك بناصية الخلافة و شيئا فشيئا أصبح الخليفة مكتوف الأيدى مسلوب السلطان . ولما حاول أخوه المتوكل الذى ولى بعه سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م أن يقف فى وجههم قتلوه سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م ، و منذ ذلك الوقت سيطر الأتراك على الدولة العباسية حتى صارت فى أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون .

ب - إنعدام هيبة الخلافة :

لم تستطع الخلافة العباسية الإحتفاظ بهيبتها فى الوقت الذى أضحى فيه الخلفاء ألعوبة فى يد قادتهم الأتراك ، فكثير من الخلفاء فى العصر العباسى الثانى إنتهى أمرهم ، إما بالخلع أو القتل . ولم يعد للخلفاء من الخلافة إلا الإسم والمظهر وصعب كبح جماح القادة الأتراك الذين جرت فى دمائهم حب التسلط والإستبداد بالأمور فجمعوا فى أيديهم الأمر والنهى وكان من الطبيعى ألا يحظى الخليفة العباسى بقدر كافى من الإحترام وغدا رمزا دينيا لا أكثر .

ويروى أن الخليفة المتقى (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ) فكر فى الهروب إلى مصر فإتصل بواليها محمد الإخشيد فى مدينة الرقة سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م، لكن أمير الأمراء التركى توزون علم بذلك فاعتقل الخليفة المتقى وخلعه من الخلافة ثم سمل عينيه جزاء محاولة هروبه إلى مصر .

وقد صور بعض الشعراء هذه الحالة المريرة التى مر بها الخلفاء العباسيون فى تلك المرحلة قول الشاعر العلوى دعبل (ت ٢٤٦ هـ) :

خليفة مات ، لم يحزن له أحد   وآخر قام ، لم يفرح به أحد

فمرَّ ذاك ، ومر الشؤم يتبعُه   وقام ذا فقام النحس والنكد .

وفى بداية عهد الخليفة المستكفى ، حل النفوذ البويهى الفارسى محل نفوذ القـــادة الأتراك سنة ٣٣٤ هــ / ٩٤٥ م وذلك حين دخل أحمد بن بويه مدينة بغداد فأسند إليـه الخليفة المستكفي منصب أمير الأمراء ولقبه بمعز الدولة .

جـ – تفكك وحدة الدولة :

أدى ضعف الدولة العباسية فى العصر العباسى الثانى إلى أن لجأ بعض حكـــام أقـــاليم الدولة إلى الإستقلال بولاياتهم فأصبح كل ما يربطهم بالخلافة هو مجرد الإعتراف الإسمـى بالخليفة والدعاء له على المنابر ونقش السكة بإسمه ثم إرسال بعض الهدايا التى تُقدم إلى دار الخليفة فى بعض المناسبات ، أما ما عدا ذلك فقد إستقلت الولايات إســتقلالاً قوميـاً أو داخلياً ، بمعنى أن ولاتها كانوا أحراراً فى إدارة هذه الدول ، وأن مالية كل دولة كـــانت تصرف على شئونها الخاصة ، كما كان لكل دولة جيشها الخاص بها . و بلغ الأمر عنـــد بعض الحكام أنهم إصطدموا حربياً بجيوش الخلافة وحققوا إنتصارات عليها ، ومن أمثلـــة هذه الدويلات : الدولة الطاهرية فى خراسان ، والصفارية فى فارس ، والطولونية فى مصر.

عصر نفوذ الأتراك:

بدأ العصر العباسى الثانى أو عصر نفوذ الأتراك من سنة (٢٣٢ – ٣٣٤ هــ) وفيـه ظهر ضعف الخلافة العباسية وأخذت مكانتها تضمحل فى نظر الدول المعاصرة لها إسـلامية أو غير إسلامية ، و لم يبق فى قبضة الخليفة العباسى سوى العراق وفارس والأهواز وحـــتى هذه النواحى عمتها الفتن والإضطرابات و لم يلبس أن آل الأمر إلى أن قبض على زمـــام الأمور أمير تركى أو ديلمى عُرف بأمير الأمراء يجمع فى يده كافة شئون الدولة . وقـــد تولى الخلافة فى هذا العصر إثنا عشر خليفة هم :

المتوكل ، المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدى ، المعتمد ، المعتضد ، المكتفى ، المقتـــدر ، القاهر ، المتقى ، المستكفى .

وقد حكموا جميعاً مائة سنة وسنتين . ومن هؤلاء الخلفاء إنتهى أربعة خلفاء نهاية هادئة ، فى حين إنتهى أمر الثمانية الباقين إما بالخلع أو بالقتل .

جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)

ولى جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بعد وفاة أخيه الواثق ، وكان القواد الأتراك أول من بايعه لا سيما القائد المعروف بالدمشقى ووصيف ، وإستمر عهده أكثر من عشر سنة ، وقد أمر المتوكل بوقف مناقشة خلق القرآن وامتحان الناس فى هذا الشأن ، كما أمر الخليفة المحدثين والشيوخ بإظهار السنة .

كذلك عمل المتوكل على إضعاف نفوذ الأتراك ، وبدأ بالقائد إيتاخ الذى استفحل خطره فقد جمع بين يديه معظم مناصب الدولة العباسية ، فقبض عليه وحبسه إلى أن مات كما فكر فى نقل عاصمة الدولة العباسية من سامراء إلى دمشق للتخلص من سيطرة الأتراك ، وفعلاً انتقل إلى دمشق ، لكن الأتراك شغبوا عليه واتهموه بالتخلص منهم والإستعانة بالعرب عليهم ، وفى نهاية الأمر اضطر المتوكل إلى العودة لسامراء .

أما سياسة المتوكل تجاه العلويين فقد اتسمت بالعداء ويرجع بعض المؤرخين أن سبب ذلك يرجع إلى أن المتوكل كان يجالس جماعة شديدة الكراهية للعلويين ، وكانوا يشيرون عليه بإبعادهم والإساة إليهم فمضى فى الإساءة إليهم حتى أمر فى سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١ م بهدم قبر الحسين بن على بن أبى طالب بكربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يحرث ويسقى موضع قبره .

وقد وشى بأبى الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكـــاظم إمام الشيعة الإمامية ، فاستحضره المتوكل من المدينة المنورة إلى سامراء ، وأجـــبره علـــى الإقامة فيها إلى أن توفى المتوكل وفى خلال إقامة أبى الحسن فى سامراء تعرض لإساءة مـــن قبل المتوكل ، و لم يكن أبى الحسن العلوى الوحيد الذى تعرض لأذى المتوكل ، فيحيى بـــن عمر بن زيد بن على بن الحسين قبض عليه وضرب بالمقارع وسجن فى مدينة بغداد .

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد أن المتوكل تناول بالإستهزاء شخصية علـــىّ بـــن أبى طالب باستقدام المهرجين الذين يقلدون الأخير ثم يقوم المتوكل بضربهم إمعاناً فى الحط مـــن قدر العلويين .

شهد عصر المتوكل بعض الإضطرابات فى أماكن متفرقة من الدولة العباســـية ، إلا أن أقواها كان فى أرمينيا ، وأذربيجان ، كما قامت فى صنعاء بـــاليمن حركـــة إنفصاليـــة استطاعت أن تستقل بنجد باليمن سنة ٢٤٧هـــ / ٨٦١ م ، وأسست دولـــة عرفـــت بالدولة اليعفرية نسبة إلى " يعفر بن عبد الرحمن " واستمرت هذه الدولة التى أسسها يعفـــر إلى سنة ٣٨٧هـــ/ ٩٩٨ م .

إستمرت العلاقات العدائية بين العباسيين والبيزنطيين فكان الخلفاء العباسيون يقومـــون بتجريد الحملات العسكرية لغزو أراضى الدولة البيزنطية ويعودون بعد تدمير قراهم وأســـر أعداد كبيرة منهم ، أما البيزنطيون فكانوا يغيرون على ثغور الدولة العباســـية وفى عـــهد المتوكل أغار البيزنطيون على دمياط سنة ٢٣٨ هـــ / ٨٥٢ م بأسطول قـــدره بعـــض المؤرخين بأنه زاد عن ثلاثمائة مركب ، فى حين يرى فريق آخر أن أسطول الروم كـــان خمسة وثمانين سفينة .

وما يهمنا أن أسطول البيزنطيين دخل دمياط فى غياب حاميتها فأشعلوا النار فى بيوتها وجامعها بعد أن خربوها وسبوا عدد من رجالها ونسائها ، كما إستولوا على ما بها من أسلحة ثم عادوا إلى بلادهم .

سبقت الإشارة إلى أن المتوكل قد واصل عملية الفداء بين المسلمين والبيزنطيين ، ففى عهده تم الفداء سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م على نهر اللامس ففدى من المسلمين فى سبعة أيام عدد كبير من النساء و الرجال وحدث الفداء الثانى بين الطرفين فى سنة ٢٤٦هـ / ٨٦٠ م .

تشبه الخليفة المتوكل بهارون الرشيد فى مسألة ولاية العهد ، إذ جعلها لأولاده الثلاثة: المنتصر والمعتز والمؤيد ، وذلك سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩ م ، وقسم الدولة العباسية بينهم "وعقد لكل واحد لوائين : أحدهما أسود وهو لواء العهد ، والآخر أبيض وهو لواء العمل" . وبسبب محبته لزوجته قبيحة وبإيعاذ من الوزير عبد الله بن خاقان وأخوه الفتح رأى أن يقدم ابنه المعتز منها ، على أخويه المؤيد والمنتصر . غير أن هذا لم يرض المنتصر ، فدبر مؤامرة مع الأتراك لإغتيال أبيه .

ونجحت المؤامرة لأن الأتراك أوجسوا خيفة من نوايا المتوكل تجاههم وإلتفوا حول بغا الصغير وباغر التركى وأوتامش و نفذوا جميع ما إتفقوا عليه مع المنتصر ، فدخلوا على المتوكل فى مجلس خلوة ومعه الفتح بن خاقان فقتلوهما فى أوائل شوال سنة ٢٤٧هـ/ ديسمبر ٨٦١ م .

محمد المنتصر بالله (٢٤٧ - ٢٤٨)

بويع للمنتصر بالله بعد أن نجحت مؤامرة قتل المتوكل التي دبرهـا بالإشـتراك مـع الأتراك ، لكنه لم يبق فيها أكثر من ستة أشهر بسبب وفاته سنة ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م .

ومما لا شك فيه أن المنتصر في مستهل حكمه قد عمل برأى الأتراك فخلع أخويه وفقا لنصيحة الأتراك ثم ما لبث المنتصر أن ندم على إشتراكه في قتل أبيه وإنصياعه للأتـراك ، وتكفيرا لفعلته تلك أخذ يسبهم ويردد : " هؤلاء قتلة الخلفـاء " . إلا إنـه لم يسـتطع التخلص منهم .

وبالرغم من أن أباه المتوكل قد أساء إلى العلويين ، فإن المنتصر بالله أحسن معاملـة أبناء عمومته العلويين فسمح لهم بزيارة قبر الحسين بعد أن كان أبوه قد منعهم من ذلك ، و أطلق أوقاف الطالبيين و أبطل ملاحقة شيعتهم و إلحاق الأسى بهم فجعل الناس يميلـون إليه مع تخوفهم منه .

المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٨ هـ)

بويع أحمد بن محمد المعتصم الملقب بالمستعين بالله يوم وفاة الخليفة محمد المنتصر وقـد أجمع القواد الأتراك على توليته وعدم تولية أحد من أولاد المتوكل خوفا من الثأر لأبيهم

منهم ، ولقبوه بالمستعين بالله وكان عمره ثمان وعشرون سنة فإستبد الأتـــراك بـــالحكم وغلب على امره وصيف وبغى وأتامش حتى قال بعض الشعراء :

خليـــفة فى قفـــص   بين وصيـــف و بغـــا
يقـــول ما قاله لـــه   كما تقـــول الببـــغا

وفى عهد الخليفة المستعين بالله عاود العلويون تمردهم على الحكم العباســـى ، فقـــد استطاع يحيى بن عمر الزيدى أن يقنع أهل الكوفة والأعراب بالدعوة إلى الرضا مـــن آل محمد ، وتمكن يحيى من الإستيلاء على الكوفة ، وانضم إليه عامة بغداد ، غير أن المستعين أمر القائد التركى كلكاتكين بالقضاء على تمرد يحيى العلوى ، وقد تمكن القائد التركى من هزيمة يحيى وقتله فى سنة ٢٤٩هـــ / ٨٦٣م ، وحملت رأسه إلى المستعين بسامراء حيـــث علقت بدار العامة ، الأمر الذى أثار غضب الناس ، فأرسل الرأس إلى بغداد ليعلق بها .

لم يكن يحيى بن عمر هو الوحيد الذى خرج من الشيعة الزيدية على المستعين بـــالله . إذ خرج الحسن بن زيد بن محمد بنواحى طبرستان واستولى عليها فازداد أنصاره ، فمـــا كان من الخليفة المستعين إلا أن طلب من قائده " وصيف " التركى بتجهيز جيش قـــوى لمحاربة الحسن بن زيد ، ومنعه من تجاوز طبرستان ، وهكذا نجح الحسن بن زيد فى تكويـــن دولة زيدية بطبرستان استمرت نحوا من قرن كامل ٢٥٠-٣٣٥ هـــ / ٨٦٤- ٩٦٥ م.

لكن التنافس بين القادة الأتراك على السيادة والسلطة سرعان ما دب بينهم ، فلـــم يرض " وصيف " و " بغا " عن استئثار " أتامش " بالنفوذ والسلطة ، فدبرا لـــه مؤامـــرة ونجحا فى قتله سنة ٢٤٩هـــ / ٨٦٣ م . وذلك بالإتفاق مع المستعين بالله ، كما اتفقـــا على قتل القائد التركى " باغر " وحالفهما الحظ ونجحا أيضا فى قتل الأخير فهاج أصحابه هياجا شديدا وهددوا بالإنتقام من قتلته .

وأمام ثورة أصحاب باغر لم يجد " بغا " و "وصيف " بدا للخروج من هذا الموقـــف سوى الفرار إلى بغداد بصحبة الخليفة المغلوب على أمره المستعين بالله ، فانزل الأخير بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ، ثم لحق بالخليفة فريق من الأتراك أصحاب " باغر " إلى بغـداد وطلبوا منه العودة إلى سامراء ، فامتنع عن تلبية رغبتهم فانصرفوا و أجمعوا على مبايعة إبن عمه المعتز بن المتوكل ، و كان هو و أخوه المؤيد فى الحبس فأخرجوهما وبـــايعوا المعـــتز بالخلافة ، و جعلوا لأخيه المؤيد ولاية العهد .

وبإنقسام زعماء الأتراك ، إنقسمت الدولة العباسية بين سامراء وبها الخليفـــة المعـــتز الذى ولاه الأتراك أصحاب باغر ، و بغداد و فيها الخليفة المستعين ، و أنصاره الأتـــراك أصحاب " بغا " و " وصيف " . فإندلعت الحرب بين الفريقين سنة ٢٥١ هـــ / ٨٦٥ م و إستمرت عدة أشهر .

و عندما طلب المستعين بالله مساعدة محمد بن عبد الله بن طاهر رفـــض مســـاعدته ومال إلى تأييد المعتز ، فحلت الهزيمة بالمستعين بالله وأبعد إلى واسط ، لكن أنصار القـــائد التركى باغر دبروا له مكيدة إنتهت بقتله سنة ٢٥٢ هـــ / ٨٦٦ م .

المعتز بالله (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ)

بويع أبو عبد الله محمد المعتز بالله بالخلافة عقب خلع المستعين بالله و لم يكن أحســـن حالا من سلفه ، فقد كان الخليفة المعتز الذى قضى قرابة الثلاث سنوات و نصف الســـنة فى الخلافة إلا كالأسير فى أيدى الأتراك إن شاؤوا أبقوه وإن شاؤوا خلعوه ، وإن شاؤوا

قتلوه ، ذلك لأن الأتراك أصبحوا هم أصحاب النفوذ والسلطان ولا حيلة معهم إلا مراعاة جانبهم حينا ومحاولة الدس لبعض من يخشى بأسه منه أحيانا .

ولما كان المغاربة الذين إصطنعهم المعتصم مثلما إصطنع الأتراك يشكلون فريقا يحقد على الأتراك لإنفرادهم بالسلطة والجاه فقد تصدى المغاربة للأتراك وقالوا لهم : " كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرا " . فإشتدت الفتنة بين طوائف الجند والخليفة عاجز عن أن يفعل شيئا ، فى الوقت نفسه إحتدمت المنافسات بين زعماء الأتراك و لم يسلم الخليفة المعتز من تذمر الجند ، إذ تآمر عليه جميع الجنود و ذهبوا إليه وقالوا : "أعطنا أرزاقنا " . فعجز المعتز عن دفع رواتب الجنود فقد كان بيت المال خاليا ، فأرسل الخليفة المعتز إلى أمه قبيحة وكانت ذات ثروة طائلة يسألها أن تعطيه من مالها ليستعين به على مطالب الجند فأنكرت أن يكون عندها شيئا من المال . عندها إتفق الجند من أتراك وفراغنة ومغاربة على خلع المعتز ، و فى ذلك يقول إبن الأثير : " فدخل إليه جماعة منهم ، فجروه برجله إلى باب الحجرة ، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه من الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده . و سلموا المعتز إلى من يعذبه ، فمنعه الطعام و الشراب ثلاثة أيام، فطلب جرعة من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وحصصوا عليه ، أى جعلوه فى بيت وسدوا بابه فمات " .

محمد المهتدى بالله (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ)

بويع محمد بن الواثق بعد مقتل أخيه المعتز ، لكن عامة بغداد رفضوا مبايعته وأعلنوا الثورة عليه فأغرى بعضهم بالمال ومن ثم أخمد ثورتهم . وكان محمد المهتدى يتشبه بعمر

ابن عبد العزيز وفى عهده حرم الغناء والشراب وكان يجلس للنظر فى المظـــالم بنفســـه . وقد واجهت المهتدى مشاكل كثيرة فقد ثار عليه الجند بسبب إستيلاء أمير بغداد علـــى رواتبهم ، كما ثار عليه العلويون ومنهم الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بطبرستـــان .

وفى أيامه ثار أيضا صاحب الزنج على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علـــى ابن أبى طالب فى إجتياح أراضى واسعة سنة ٢٥٥ - ٢٧٠ هـــــ / ٨٦٦ - ٨٨٠ م ، ونهب الأهواز والبصرة وواسط فهددوا الدولة العباسية زهاء أربع عشرة ســـنة قبـــل أن يقضى عليهم الموفق (طلحة) شقيق الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٥٦ - ٢٧٩ هـــ .

كذلك كثرت الثورات فى عهد المهتدى ، فقد ثار أحمد بن عيسى بن الشيخ الـــذى كان أبوه واليا على فلسطين و الأردن ، فتغلب على دمشق و إمتنع عن حمل المال إلى بيت المال العباسى ، و أخذ يطمع فى الإستيلاء على بلاد الشام و مصر ، و لم يستطع الخليفـــة المهتدى إخضاعه إلا بعد جهد كبير .

ومما لا شك فيه أن الدولة العباسية بلغت فى عهد المهتدى درجة كبيرة من التدهـــور ذلك أن الخليفة أصبح ألعوبة فى أيدى الأتراك ، وفى ذلك يصور الطبرى حـــال الدولـــة العباسية بقوله : " رفع المهتدى يديه إلى السماء ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه "اللهم إنى أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا " وإخلاله بالثغر وإباحته العدو . فإنى قد اعـــــذرت فيما بينى و بينه . اللهم تولى كيد من كايد المسلمين . اللهم إنى شاخص بنيتى وإختيـــارى إلى حيث نكب المسلمون فيه ناصرا لهم ودافعا عنهم . اللهم فآجرنى بنيـــتى إذ عدمـــت صالح الأعوان ، ثم إنحدرت دموعه وبكى ... " .

ولما إشتد الضيق بالخليفة نتيجة إستبداد الأتراك بالسلطة ، عزم على التخلـــص مـــن كبار القادة ، وقد ساءت علاقته مع موسى بن بغا الذى إلتف حوله الجند ، فحاول أن

يتخلص منه بالحيلة عن طريق إستمالته أحد قوّاد الجيش المدعو " بكباك " ، لكن الأخـــير إتفق مع موسى بن بغا على عزل المهتدى و قتله ، فأجبروه على خلع نفسه لكنه رفـــض فعذبوه حتى مات فى سنة ٢٥٦ هــ / ٨٧٠ م .

أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ)

بويع أبو العباس أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد على الله بالخلافة سنة ٢٥٦هـــــ/ ٨٧٠ م حتى توفى سنة٢٧٩هــ/ ٨٩٢ م وكان طوال فترة حكمه التى استمرت حـــوالى ٢٣ سنة مستضعفا إذ يقول ابن طبا طبا : " كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفـــق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع كان هـــو وأخوه الموفق كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنـــين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغـــور ، وترتيـــب الوزراء والأمراء ، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته " .

ومما لا شك فيه أن الأحداث التى شهدتها الدولة العباسية من ازدياد نفـــوذ الأتـــراك وتنافسهم على السلطان ، وضعف الخلفاء العباسيين عن مواجهتهم ، قد أدى إلى هـــذه الإزدواجية فى الحكم ، فقد إتفق زعماء الأتراك على أن يتولى أمر الجيش أحـــد أخـــوة الخليفة العباسى ، وألا يرأسهم أحد من الأتراك ، ومن ثم فاستدعى المعتمد لذلك أخاه أبـا أحمد طلحة من مكة على أنه جعل ولاية العهد لإبنه جعفر ، ومن بعده لأخيه أبى أحمـــد طلحة الذى لقبه بالموفق ، ، وأسند إليه أمر البلاد الشرقية ، واختص ابنـــه أمـــر البـــلاد الغربية. لكن الموفق طلحة كان شخصية قوية ، وأكثر كفاءة من أخيه المعتمد وابنه جعفر،

فاستبد بأمور الدولة العباسية ، فى حين أن المعتمد كان شغوفا باللهو والطرب ، ويـــروى أن المعتمد كان كالمحجور عليه ، دليلنا على ذلك أنه احتاج يوما إلى ثلاثمائة دينار فمنعـت عنه ، فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يـــرى ما قـــل ممتنعـــا عليــــه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعـــا ومـــا من ذاك شـــىء فى يديـــه

إليه تحمل الأمـــوال طـــرا ويـــمنـــع بعض مـــا يجبى إليـــه

وفى خلال فترة حكم المعتمد على الله ظهرت أحداث هامة ، مثل ثـــورة الزنـــج ، واختفاء الإمام الثانى عشر عند طائفة الشيعة الإثنى عشرية ، وتأســـيس طائفـــة الشـــيعة الإسماعيلية التى تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق .

١- ثورة الزنج :

الزنج طائفة من العبيد الأفارقة ، كلفوا بكثير من الأعمال دون أن يتقـــاضوا أجـــرا سوى القليل من الطعام ، وفى ظل هذه الأوضاع السيئة التى عاشها الزنج ، ظهر رجــــل يقال له : على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بـــن أبى طالب ، وقد اشتهر ببلاغته ، وخلقه الحسن ، فاستطاع أن يستميل قلوب العبيد من الزنج المقيمين فى مدينة البصرة ونواحيها ، حينما قال لهم : بأن ساعة القضـــاء علـــى الـــرق والعبودية قد حانت ، فالتف حوله خلق كثيرون ، فغزا أصحابه المدن ينهبون ، ويشـــيعون الذعر فى قلوب الأهالى ، ومن ثم استغاث الأهالى بالخلافة لوقف أعمال الزنج التخريبية .

وقد حاول المعتمد على الله وقف إعتداءات الزنج ، خاصة وأنهم قد انتشروا فى المـــدن العراقية والبحرين ، فأرسل الجيوش العباسية بقيادة كبار قادته مثل موسى بن بغا ، لكـــن هذه الجيوش لم تتمكن من تحقيق المرجو منها فى القضاء على الزنج . ومن ثم فقد استعان

المعتمد على الله بأخيه الموفق طلحة ، فتوجه لقتالهم سنة ٢٦٧هـ / ٨٨١م . فحاصر مدينتهم التى بنوها وأسموها " المختارة " حتى إستولى عليها .

استمر الموفق طلحة فى قتال الزنج عدة سنين حتى إضطرهم فى النهاية إلى الإستسلام بعد أربع عشرة سنة و ذلك فى سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م قتل فيها بضعة آلاف ، كما قتل صاحب الزنج .

مما لا شك فيه أن هذه الأحداث فضلا عن الأحداث التى وقعت خلال عهد الخليفة المعتمد قد كلفت بيت المال أموالا طائلة ، فى نفس الوقت اشتط عمال الدولة العباسية فى فرض الضرائب الباهظة على الأهالى مما زاد من سخطهم .

تجاه هذا الأمر رأى الموفق أن يطلب من أحمد بن طولون بعض الأموال . ولما علم الخليفة المعتمد بذلك أرسل إلى أحمد بن طولون والى مصر كتابا يأمره فيه بضرورة حمل مال مصر إلى دار الخلافة ، فى الوقت نفسه حذره من أخيه الموفق . فسعى الأخير إلى صرفه عن ولاية مصر ، ولما لم يتجاوب مع رغبة الخليفة المعتمد عمد إلى عزله عن الثغور الشامية ، لكن الخليفة ردها إليه بعد أن اضطربت أحوالها فضيق الموفق الخناق على أخيه واستبد بأمور الدوله فحاول المعتمد الهروب إلى مصر لكنه فشل فى ذلك .

٣- اختفاء الإمام محمد بن الحسن العسكرى " الإمام الثانى عشر " :

توفى الإمام أبو محمد الحسن العسكرى على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق الإمام الحادى عشر من أئمة الشيعة الإمامية الإثنا عشرية سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٤ م وكان ابنه محمد فى الخامسة من عمره . فأصبح الإمام الثانى عشر عند تلك الطائفه .

ويقال أن الإمام الثانى عشر قد دخل سردابا فى مدينة سامراء وأمه تنظر إليه لكنـــه لم يعد و لم يعثر أتباعه على أثر له منذ ذلك الحين سنة ٢٦٥هــ / ٨٧٩ م . ويعتقد شـــيعة الإمامية الإثنا عشرية أن محمد بن على سيظهر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ومن ثم أسموه الإمام المنتظر .

٣- تأسيس طائفة الإسماعيلية :

لجأ الأئمة الإسماعيلية إلى الإختفاء ، وعمدوا إلى نشر دعوقم خوفا مـــن مطـــاردة العباسيين لهم و لم يمض وقت طويل حتى إنقسموا إلى فرقتين كلتاهما عملت ضد الدولـــة العباسية .

الأولى : اتخذت من قرية سلمية قرب حمص مركزا لها ومنها كان الأئمة يوجـــهون الدعاة إلى الأقاليم ، وكانت هذه الفرقة أكثر إعتدالا من الفرقة الثانية ، ومنـــها انبثقـــت الدعوة الفاطمية التى انتشرت فى بلاد المغرب واقام دعاقما الخلافة الفاطمية .

الثانية : تنسب إلى حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط ، وقد عرفت بالقرامطة الذين هددوا الدولة العباسية فى الكوفة وبادية الشام وغيرها .

ولا شك أن هذه الأوضاع قد أثرت على الدولة العباسية فى الداخل والخارج ، وقـــد استغل البيزنطيون فرصة اضطراب الخلافة فأغاروا على حصن لؤلؤة الذى كان يشـــكل خطرا عليهم واستولوا عليه سنة ٢٦٣هــ / ٨٧٧ م ، كما أغاروا على أطـــراف بـــلاد الجزيرة .

وفى خلال تلك الأحوال المضطربة للدولة العباسية توفى الخليفة المعتمد علـــى الله فى شهر رجب سنة ٢٧٩هــ / ٨٩٢ م .

المعتضد بالله (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ)

ولى أبو العباس أحمد بن الموفق الخلافة بعد وفاة عمه المعتمد على الله ، وقــد تمــيز المعتضد بالقسوة والشدة والشجاعة ، وقد وصفه ابن الأثير بانه كان " شــهما شــجاعا مقداما ، وكان ذا عزم وفيه شح " .

وقد وقعت عدة أحداث فى عهده أهمها : الإضطرابات التى قام بها العــرب نتيجــة قلقهم من ازدياد نفوذ الأتراك ، فعاث بنو شيبان فى الجزيرة فسادا ، فقاد الخليفة المعتضــد بنفسه حملة عسكرية لتأديبهم ، فنهب أموالهم وقتل منــهم عــددا كبــيرا . وفى ســنة ٢٨١هـــ/ ٨٩٤ م توجه للإستيلاء على قلعة ماردين التى اخذها عنوه حمدان بن حمــدون جد الأسرة الحمدانية فهدم القلعة ، وألقى القبض على حمدان .

وفى أرض الجزيرة استفحل خطر الخارجى هارون الشارى وهزم الجيوش التى أرســلها المعتضد لحربه ، فاختار المعتضد حسين بن حمدان بن حمدون ، فقال لــه الأخــير : " إن جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين ، أحدهما : إطلاق سراح أبى ، وحاجتــان أذكرهما بعد مجيئى . فوافق المعتضد على ذلك " وتوجه ابن حمدان لمحاربة الشارى وتمكن منه ، فخلع المعتضد عليه بعض الهدايا ، وأمر بإطلاق سراح ابيه ، وكان هذا بداية ظــهور الأسرة الحمدانية . وفى سنة ٢٨٧هـــ / ٩٠٠ م استطاع الخليفة المعتضد أن يرد غــارات القرامطة بزعامة أبى سعيد الحسن الجنابى الذى هاجم اقليم البصرة .

ومن الجدير بالملاحظة أت المعتضد لم تمنعه تلــك الأحــداث مــن اجــراء بعــض الإصلاحات فى الإدارة ولاسيما نظام الجباية ، ومن أجل ذلك عمل على تغيــير التقــويم المتبع للتوفيق بين التقويم الهلالى والتقويم الشمسى .

فمن المعروف أن المسلمين كانوا يستعملون التقويم الهلالى خاصة وأن عبادتهم ومنـــها الحج والصوم تسير وفق هذا التقويم ، أما جباية الخراج فتكون وقت نضـــوج المحـــاصيل الزراعية ، التى لا يتغير وقتها ويتحدد بالتقويم الشمسى . لذلك رأى المسلمون أن كـــل ٣٢ سنة شمسية تساوى تقريبا ٣٣ سنة هلالية ، ومن ثم عمل المســـلمون كلما مرت ٣٢ سنة هلالية على إضافة سنة على السنة الخراجية . ففى سنة ٢٤١ الخراجية مثلا ، نســـب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية واسقطت سنة ٢٤١ هـــ ، لأن الغلة حان نضوجها ســـنة ٢٤٢ هـــ .

وقد أمر المعتضد عماله فى المشرق والعراق بتطبيق هذه الطريقة فى جباية الخراج ، أمـا فى الشام فقد كان الخراج يؤخذ وفقا للشهور الرومية ، وفى مصر كان الخـــراج وفقـــا للشهور القبطية ، وكلاهما ثابت لأنهما يعتمدان على نظام السنة الشمسية .

ومن الملاحظ أن المعتضد قام بنقل مركز الخلافة من سامراء إلى مدينة بغداد ، وتـــوفى المعتضد بالله فى ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـــ / ٩٠٢ م بعد أن ولى الخلافة بعده ابنه محمـــد الملقب بالمكتفى بالله .

المكتفى بالله (٢٨٩-٢٩٥ هـ)

بويع بالخلافة أبو محمد على ولقب بالمكتفى بالله يوم وفاة أبيه المعتضد وفى عـــهده بدأت ظواهر الضعف تظهر بوضوح من خلال تنافس ذوى النفوذ فى الدولـــة العباســـية أمثال وزيره القاسم بن وهب وابن بدر قائد جيش المعتضد مما اثر ســـلبيا علـــى الدولـــة العباسية .

ونظراً لسوء أحوال الدولة العباسية عاث القرامطة فساداً بزعامة ابن زكروية الملقـب بالشيخ ، فخربوا الشام والبحرين والعراق والبصرة ، وامتدت أعمالهم التخريبيـة حـتى مسجد الرصافة فقاموا بحرقه .

ونجح القرامطة فى الحاق الهزيمة بالقوات الطولونية فى بلاد الشام ، وتزعم قرامطـة الشام الحسن بن زكرويه ، فأظهر شامة فى وجهه ، وزعم أنها آية له ، فلقب بـ " ذى الشامة " وسمى بأمير المؤمنين بين سنتى ٢٨٩-٢٩٠ هـ/ ٩٠٢-٩٠٣ م .

ارتكب ابن زكروية كثير من أعمال النهب والسرقة والقتل ويقال أن صبيان المكاتب لم يسلموا من يده ، فرفع أهل الشام شكواهم ضده للمكتفى بالله فاسـتقر رأيـه علـى الخروج بنفسه للقضاء على قرامطة الشام فتوجه إليهم عن طريق الموصل فطارد أبا شـامة وتمكن محمد بن سليمان قائد المكتفى من ايقاع الهزيمة بالقرامطة والقاء القبض علـى أبى شامة سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٣ م .

وفى سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م هاجم والد ذى الشامة وهو" زكرويه " الكوفـة ، وفى سنة ٢٩٤هـ / ٩٠٧ م أغار القرامطة على قوافل الحجاج الخرسانيين والعراقيين العائدين من مكة ، فنهبوا ممتلكاتهم . وقد استاء أهل بغداد من الغارات القرمطية وما يتبعها مـن أعمال النهب والسرقة ، فأرسلت الجيش العباسية لمحاربة القرامطة . وتمكنت فى النهايـة من قتل زعيمهم زكرويه سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م وفر من بقى من رجاله .

أما بالنسبة للعلاقات العباسية البيزنطية فقد اتسمت بالود حيناً والعداء أحياناً أخرى . ففى سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ارسل أرسل الإمبراطور البيزنطى رسله إلى الخليفة المكتفى يسألونه الفداء بين الأسرى فتم الفداء سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م وتم فداء نحو ١٢٠٠أسير

من المسلمين . وتم الفداء الثانى سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٨ م فبلغ عدد من فدى من المسلمين ثلاثة آلاف من الرجال والنساء .

وفى سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م أرسل الخليفة المكتفى جيشاً قوياً خرج من طرسوس لمهاجمة إنطاكية التى كانت أهم ثغور الدولة البيزنطية البحرية ، فتمكن المسلمون من فتحها وقتل وأسر الكثير من أهلها كما استولوا على ستين مركباً للبيزنطيين . وتوفى الخليفة المكتفى فى ذى الحجة سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م .

المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)

تولى أبو الفضل جعفر بن المعتضد الملقب بالمقتدر بالله بالخلافة ، بعد وفاة أخيه المكتفى وهو فى الثالثة عشر من عمره ، ففرض القادة الأتراك الوصاية عليه فبقى مغلوباً على أمره طوال مدة خلافته ، وفى ذلك يقول ابن طباطبا : " وأعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولإستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه . فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ، وهو مشغول بلذاته ، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قتل " .

وتشير الروايات التاريخية أن أمه التى كانت تسمى " السيدة " كانت تمسك بمقاليد الأمور فى يدها . وكانت إذا غضبت من أحد الوزراء فمصيره العزل ،وبلغ من استهتارها بالحكم وبالخليفه المقتدر أنها عينت قهرمانتها " تومال " على رأس ديوان المظالم .

ومما لا شك فيه أن الفساد قد تفشى فى عهد المقتدر فأصبحت الرشوة هى الوسيلة للوصول إلى منصب الوزارة ، بعدما تدخل الخدم والحاشية والنساء فى تعيين الوزراء فاختلت الدولة العباسية . ومما زاد من سوء أحوال دولة المقتدر بالله ، عودة القرامطة لممارسة أعمالهم التخريبية فى أراضى الدولة العباسية ، ففى سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م غزا قرامطة البحرين بزعامة أبوطاهر الجنابى مدينة البصرة فنهبوا وقتلوا من أهلها الكثير ، ثم توجه القرامطة إلى طريق الحجاج فنهبوا قافلة منهم وتركوهم بلا طعام أو شراب .

وفى سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م هاجم أبو طاهر الجنابى مدينة الكوفة وأنزلوا الهزيمة بجيش الخلافة العباسية ثم اتجهوا إلى الأنبار ومنها إلى الجزيرة ، وفى كل مرة يهزمون الهزيمة بجيش الخليفة المقتدر وينشرون الخراب فى كل منطقة يغيرون عليها .

وازداد خطر القرامطة فى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م عندما غزا أبو طاهر الجنابى مكة المكرمة فى موسم الحج فاستباح الحرم وقتل الحجاج فى المسجد الحرام ، وخلع كسوة الكعبة ، وأخذ الحجر الأسود ، ولم يرده إلى مكانه إلا بعد أن أمرهم الخليفة المهدى عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب .

وقد انتهز البيزنطيون ضعف الدولة العباسية فأغاروا فى سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م على ثغور المسلمين فى الجزيرة ، فاستولوا على حصن منصور وسبوا من فيه . وبعد ذلك بعامين وصل رسولان من بيزطية إلى بغداد لطلب الهدنة والفداء ، فأجابهم المقتدر إلى طلبهم .

وكان من الطبيعى أن يتمادى البيزنطيون فى سطوتهم على أهالى الثغور الإسلامية نظراً لإضمحلال دولة المقتدر وعجزه عن دفعهم ، وظهر هذا جلياً فى تهددهم لأهل

الثغور الإسلامية سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م يأمرونهم بحمل الخراج إليهم ، وإلا تعرضوا لهجومهم ، فلما رفض طلبهم ، غزوا " ملطية " سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٦ م ، وفى السنة نفسها هاجموا مدينة " دبيل " فى أرمينيا واقتحموها بعد قتال بسيط مع أهلها . كذلك قتل البيزنطيون سرية من المسلمين خرجت من طرسوس إلى بلادهم .

وخُلع المقتدر لله عن الخلافة وبويع بها عبد الله بن المعتز الذى لقب بالمرتضى سنة ٢٩٦هـ / ٣ ٥ م فمكث الخير يوماً واحداً لأن أنصار المقتدر أعادوه بالقوة ، فألقى القبض على المرتضى ، ولم يعد الأخير من الخلفاء لقصر مدة ولايته . ثم خرج مؤنس الخادم أمير الجيوش على المقتدر فى سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م وسنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ، وانتهى الصدام بينهما بقتل المقتدر وقطع رأسه وتركه جثته عارية لعدة أيام ، ثم بويع بالخلافة بعده أخوه القاهر بالله .

القاهر بالله (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ)

هو أبو منصور محمد بن المعتضد ، تولى الخلافة سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م ولقب بالقاهر بالله ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان مهيب الجانب ، يميل إلى سفك الدماء ، أهوج محباً للمال ، صادر جماعة من امهات اولاد المقتدر ، كما صادر أم المقتدر ، وعلقها برجلٍ واحدة منكسة الرأس وعذبها حتى ماتت .

وقد انتشرت الفتن فى عهده ، كما تآمرت جماعة الساجية " أتباع يوسف بن أبى الساج أحد قواد المعتمد " ، وجماعة الحجرية " فرقة من الحرس الخاص فى قصور الخلفاء كانوا يسكنون فى حجر منفصلة " للإطاحة به بعد أن علمتا أنه أخذ فى إقامة " المطامير"

وهى حفر تحت الأرض لسجنهم وتعذيبهم ، لكن القاهر كشف مؤامرتهم وقتلهم جميعـاً. وأثار ذلك الجند فهاجموا دار القاهر وهو مخمور فقبضوا عليه وسملوه وسجن إلى أن مـات سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م فى عهد الخليفة الطائع بالله ٣٣٤-٣٦٤ هـ /٩٤٥-٩٧٤ م .

عصر أمرة الأمراء
(٣٢٤ - ٣٣٤ هـ)

خلف القاهر بالله فى حكم الدولة العباسية أبو العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد ، الملقب بالراضى بالله (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) و قد تفشى الفساد فى الدولة العباسية وكثرت الرشاوى للحصول على المناصب ، فقد دخلت الدولة العباسية فى عهد الراضى بالله مرحلة جديدة أطلق عليها (عصر أمرة الأمراء) الذى أنشأه الخليفة الراضى بإستدعائه سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م محمد بن رائق الذى كان والياً على واسط والبصرة وسلمه مقاليد الأمور و لقبه " أمير الأمراء " فإزدادت سلطته وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم ، وزادت مكانته عند الخليفة وعلت على مرتبة الوزير . " ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وأعمال المعاون فى جميع النواحى ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، وأن يكنى ، وأنفذ إليه الخلع واللواء مع ماكرد الديلمى " من الساجية " وخادم من خدم السلطان " .

و لم يكن إنشاء الراضى لمنصب أمير الأمراء إلا حينما إستعان بوزراء ضعاف كانوا يبذلون للخليفة كثيراً من المال ليرفعهم إلى مرتبة الوزراء بالرغم من عدم كفاءتهم وضعفهم عن إدارة أمور الدولة و ليس أدل على ذلك مما بذله أبو على بن مقلة حين تقلد الوزارة للمرة الثالثة فى عهد الراضى مقابل دفعه للخليفة خمسمائة ألف دينار و لكنه لم يلبث بالوزارة طويلاً إذ ثار عليه الجند و إنتهى الأمر بعزله ، فإستوزر الخليفة الراضى عبد الرحمن بن عيسى بن داود فظهر عجزه عن إدارة البلاد . ثم قلد الراضى أخاه الوزارة

فإختلت أمور الدولة فإستقال من منصبه فحل محله أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي ، فإشتد ضعف الدولة فى عهده و إضطر أخيراً إلى الإختفاء .

وعلى أية حال فإن هذه الصلاحيات الواسعة التى أعطيت لأمير الأمراء قد حدت من نفوذ الوزير ، بل يمكن القول أن الوزير لم يعد له من الوزارة إلا إسمها حتى إنه حرم من الحضور إلى دار الخلافة إلا فى أيام الموكب ، و عندئذ يحضر ليقف ساكتاً ، وصار محمد بن رائق وكاتبه ينظران فى كافة شئون الدولة ، كما صارت أموال الدولة تحمل إلى خزائن الأمراء فيأمرون و ينهون فيها وينفقونها كما يرون .

وفى هذا الصدد كان الخلفاء العباسيين فى عهد أمرة الأمراء لا يملكون من الأمر شيء فقد عاشوا عيشة العزلة . لا يظهرون إلا فى الحفلات الرسمية . وبعد أن تجمعت جميع أمور الدولة فى يد أمير الأمراء ، فقد فتح هذا المنصب الباب على مصراعيه للتنافس بين الأمراء لشغل هذا المنصب ، وخير دليل على ذلك أن محمد بن رائق قد دخل فى صراع عسكرى مع أبو عبد الله البريدى صاحب الأهواز سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧ م ، كما نافسه أيضاً أحد قواده و اسمه بجكم فضعفت قوة ابن رائق ونجح بجكم فى دخول بغداد سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م وآلت إليه أمرة الأمراء ، و إستولى بذلك على شئون الدولة العباسية زهاء سنتين من ٣٢٧ - ٣٢٩ هـ فى الوقت الذى ساءت أحوال بغداد حتى أن العامة عاثوا فى الأرض فساداً وتفاقم خطر اللصوص وإنتشرت الفوضى والذعر بين الناس ، وبلغت الدولة العباسية فى عهد الراضى درجة كبيرة من الضعف .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن الخليفة الراضى قد عجز عن دفع رواتب الجند أوحتى الحصول على ما يكفيه ، وقد فكر فى الإستنجاد بأبى عبد الله الحسن البريدى صاحب خوزستان ، وظلت حالة الخلافة على ذلك حتى توفى الراضى سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م .

ومن الجدير بالملاحظة أن الدولة العباسية فى عهد الراضى قد تفككت أوصالها وفى ذلك يقول ابن الأثير : " و لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لإبن رائق ، ليس للخليفة حكم . وأما باقى الأطراف : فكانت البصرة فى يد رائق ، وخوزستان فى يدى البريدى ، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان فى يد أبى على محمد بن إلياس ، والرى وأصبهان والجبل فى يد ركن الدولة بن بويه ، ويد وشمكير أخى مرداويج ، يتنازعان عليها . والموصل وديار بكر ومضر وربيعة فى يد بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج " الإخشيد " ، والمغرب وأفريقية فى يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر الأموى ، وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر ابن أحمد السمانى ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى" .

ولما توفى الخليفة الراضى اجتمع الكوفى كاتب بجكم مع سليمان بن الحسن وزير الراضى وسائر رجاال الدولة العباسية فاختاروا ابراهيم بن المقتدر لمنصب الخلافة وبويع لـه فى سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م ولقب بالمتقى بالله ، وبجكم أمير الأمراء .

إزداد التنافس بين الأمراء ، للفوز بأمرة الأمراء ، و لم يعد للخليفة المتقى من النفوذ إلا إسم الخلافة ، وقد أدى التنافس بين الأمراء إلى ضعف أمير الأمراء بجكم بالرغم من انتصاره على البريديين عند واسط بالعراق . ثم انتهى أمر بجكم بقتله على يد بعض الأكراد . وعلى أثر مقتل بجكم دخل أبو الحسن البريدى بغداد فى جيش كثيف من الأتراك والديلم واستولى على دار الخلافة بعد أن هرب الخليفة المتقى وابنه وابن رائق إلى الموصل .

قتل البريديون فى بغداد كل من وجدوه فى دار الخلافة ، وعمدوا إلى النهب حتى استاء الناس منهم ، وبعد غيبة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً عاد الخليفة إلى بغداد سنة

٣٣٠هـ / ٩٤١ م . وقلد توزون التركى شرطة بغداد واستوزر أبا حامد القراريطى ، ثم سطع نجم بنى حمدان فى أفق الدولة العباسية .

الحمدانيون – البريديون :

بدأ ظهور الأسرة الحمدانية حسبما تقدم فى أيام الخليفة العباسى المعتضد ، وفى أيام خلافة المتقى لله لمع نجم بنى حمدان عندما خلع الخليفة على الحسن بن عند الله بن حمدان ولقبه " ناصر الدولة " ، كما لقب أخيه أبى الحسن بـ " سيف الدولة " .

لكن نجم الحمدانيين لم يبق على سطوعه فى الدولة العباسية بالرغم من أن الحسن الحمدانى قد إتخذ عدة اجراءات لإصلاح الأحوال فى بغداد ، مثل إصلاح السكة فحال دون عبث العيارين والصيارف بعيارها . لكن تلك الإجراءات لم تعط النتيجة المتوقعة نتيجة ازدياد الفساد وارتفاع الأسعار وانتشار اللصوص حتى ضاق الناس ومات العديد منهم جوعاً . فضلاً عن خلاف سيف الدولة الحمدانى وتوزون التركى قائد شرطة بغداد ووقوع الخلاف بين الحمدانيين والخليفة العباسى . كما كان البريديون مستعدين لمعاودة الهجوم على بغداد مرة ثانية .

ثم إزداد الخلاف بين الحمدانيين والخليفة حينما أقدم ناصر الدولة على مضايقة الخليفة وأهله بمصادرة ضياعه وضياع والدته ، وبعد أقل من سنة أضطر الحمدانيون إلى العودة إلى الموصل ، واستطاع القائد التركى توزون بعد هزيمته للبريديين فى البصرة وواسط دخول بغداد سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م ليتولى أمرة الأمراء .

كانت سياسة توزون " أمير الأمراء "ترمى إلى مصالحة البريديين فى واسط للتفــرغ لمحاربة الحمدانيين الذين لجأ لهم الخليفة المتقى بالله بعدما ضيق عليه الخناق توزون فـــهرب إلى تكريت وفيها إنتصر توزون على الخليفة والحمدانيين وتابع فلولهم حتى الرقة .

وفى سنة ٣٣٢ هـــ / ٩٤٣ م إلتقى الخليفة العباسى المتقى بالله فى الرقة بمحمد بـــن طغج الإخشيد صاحب مصر وقد تعهد بحماية الخليفة الذى مال إلى مصالحـــة تـــوزون وفضل العودة من الرقة إلى بغداد على الذهاب إلى مصر بحماية الإخشيد .

لكن الصفاء بين توزون و الخليفة لم يدم بسبب تآمر الأول لأنـــه أراد الإستـــئثار بكامل السلطات وحرمان الخليفة من كل نفوذ . وتحقيقا لمآربه عمـــل علـــى مصالحـــة البريديين ، ثم عقد صلحا مع ناصر الدولة الحمدانى ليتفرغ لأمر الخليفة المتقى . ولما أحس الخليفة بما يدبره أمير الأمراء توزون إتصل سرا ببنى بويه ودعاهم إلى المســـير إلى بغـــداد وقامت المؤمرات فى بغداد لقتل توزون وتمهيد السبيل لدخول بنى بويـــه . ممـــا أغضـــب توزون فقبض على الخليفة سنة ٣٣٣ هـــ / ٩٤٤ م وخلعه من الخلافة وأقام عبد الله بـــن المكتفى بالله ولقب المستكفى ، أما المتقى بالله فقد سمل عينيه ووضعه فى الســـجن إلى أن مات فى خلافة المطيع سنة ٣٥٠ هـــ / ٩٦١ م . أما توزون فقد سيطر هو وقهرمانتـــه على الخليفة المستكفى حتى وفاته سنة ٣٣٤هـــ/ ٩٤٥ م بعد تقلده لأمرة الأمـــراء لمـــدة سنتين و أربعة أشهر .

كانت الدولة العباسية فى الوقت الذى توفى فيه توزون مضطربة لمحاولة أبو جعفر بـــن شيرزاد كاتب توزون إجبار الخليفة المستكفى على توليته أمرة الأمراء ، فقام بتقديم أمـــوال كثيرة للأتراك والديلم لإستمالتهم ، فأعطاه المستكفى أمـــارة الأمـــراء .

وفى أيام شيرزاد ضاعت هيبة الحكومة وفرض الأموال الكثيرة على الكتاب والعمال والتجار وغيرهم من الناس ، ثم إختفى شيرزاد بعد أن تقلد أمرة الأمراء ثلاثة أشهر وعشرين يوماً .

إضطربت أمور الخلافة العباسية فى أيام المستكفى بسبب إشتداد التنافس بين الأمراء حول منصب " أمرة الأمراء " ، فما كان من قواد بغداد إلا أن بعثوا إلى أحمد بن بويه وهو عند واسط بالعراق يطلبون إليه المجىء إليهم ، فجاء بغداد تلبية لطلبهم فى جمادى الأُولى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م . فإستقبله الخليفة العباسى المستكفى بالله وإحتفى به بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق فعقد له لواء و لقبه معز الدولة ، وأعطاه " إمارة الأمراء " ، ولقب أخاه الأوسط الحسن بـ " ركن الدولة " ، وأخاه الأكبر بـ " عماد الدولة " ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم .

ومنذ هذا التاريخ تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الدولة العباسية أطلق عليها عصر "بنى بويه " وأصبح فيها الخليفة العباسى مجرد زعيم دينى لا أمر له ولا نهى ولا وزير ، إنما له كاتب يدير إقطاعاته لا أكثر . فى حين صار بنى بويه سلاطين مطلقى التصرف فى العراق، والخلفاء تحت سيطرتهم ووصايتهم .

الدويـــــلات

المستـقـلـــة

١- الدويلات المستقلة فى الشرق الإسلامى

أ - الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) :

طاهر بن الحسين	٢٠٥ - ٢٠٧ هـ / ٨٢٠ - ٨٢٢ م
طلحة بن طاهر	٢٠٧ - ٢١٣ هـ / ٨٢٢ - ٨٢٨ م
عبد الله بن طاهر	٢١٣ - ٢٣٠ هـ / ٨٢٨ - ٨٤٤ م
طاهر بن عبد الله	٢٣٠ - ٢٤٨ هـ / ٨٤٤ - ٨٦٢ م
محمد بن طاهر	٢٤٨ - ٢٥٩ هـ / ٨٦٢ - ٨٧٢ م

تنسب الدولة الطاهرية إلى طاهر بن الحسين أحد قواد الخليفة المأمون ، وقد كافأه الخليفة المأمون بعد إنتصاره فى عدة معارك بخراسان وبغداد ضد الخليفة الأمين ، فولاه خراسان سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م ثم أضاف إليه أعمال المشرق الإسلامى بكامله . وقد إتخذ طاهر بن الحسين نيسابور فى خراسان قاعدة له ، وهكذا ظهرت أول دولة شبه مستقلة فى المشرق الإسلامى ، وقد حرص خلفاء طاهر بن الحسين على بقاء صلتهم قوية مع كل خلفاء الدولة العباسية .

وتتابع على حكم خراسان من الأسرة الطاهرية الذين ينتمون إلى أصـــل فارســـى : طاهر بن الحسين ، ثم طلحة بن طاهر الذى ولاه الخليفة المأمون ، ثم بعد وفاة طلحة خلفه أخوه عبد الله بموافقة المأمون أيضاً ، مما مكن الأسرة الطاهرية و قوى نفوذها فى خراسان. وقد أظهر الطاهريون ولاءهم للعباسيين ، وقد وصلت الدولة الطاهرية أوج قوتها فى عـــهد عبد الله بن طاهر ، يؤكد ذلك أن الخليفة العباسى المعتصم لم يكن راضياً على عبـــد الله لكنه لم يعزله فلجأ إلى المؤامرات السرية للقضاء عليه ، وبالرغم من أن عبد الله قد كشف هذه المؤامرات إلا أنه ظل على ولاءه ، وبعد وفاة عبد الله حاول الخليفة الواثق أن يـــولى على خراسان واليا آخر من خارج الأسرة الطاهرية إلا أنه لم يستطع فوافق علـــى توليـــة طاهر بن عبد الله ، ثم محمد بن طاهر . ومحمد بن طاهر آخر من تولى الحكم مـــن هـــذه الأسرة وخلف الطاهريين على حكم خراسان يعقوب الصفار سنة ٢٥٩ هـــ / ٨٧٢ م وهو مؤسس الدولة الصفارية .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن أمراء الدولة الطاهرية قد جمع معظمهم بين حكـــم دولتهم وبعض الوظائف فى بغداد ثم إنفردوا بعد زوال دولتهم بمنصب صاحب الشـــرطة ببغداد حتى سنة ٣٠١ هـــ / ٩١٣ م .

ومما لا شك فيه أن الطاهريين كانوا مصلحين فإهتموا بنشر التعليم ورفع الظلم عـــن الطبقات الدنيا وكان رائدهم الإصلاحى عبد الله بن طاهر الذى أوصى عمالـــه بمراعـــاة الزراع لأن الله كما قال لهم : " يطعمنا بأيديهم ، ويرحمنا بدعائـــهم ، ويمنـــع الإســـاءة إليهم".

ب - الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) :

يعقوب بن الليث الصفار	٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م
عمـــرو بـــــن الليـــث	٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م
طاهر بن محمد بن عمرو	٢٩٠ هـ / ٩٠٠م

تنسب الدولة الصفارية إلى يعقوب بن الليث الصفار ، والصفار لقب أطلـــق علـــى يعقوب وأخيه عمرو لإشتغالهما بصناعة النحاس .

وقد ظهرت مواهب الأخوين العسكرية عندما اشتركا مع المتطوعين فى سجســـتان بجنوب خراسان لقتال الخوارج ، وفى مجاهدة الكفار المجاورين من الهنود والترك وردهـــم عن حدود الدولة الإسلامية تحت قيادة صالح بن النضر الكنانى السجســـتانى وذلـــك فى خلافة المتوكل .

ولما توفى صالح بن النضر خلفه فى قيادة المتطوعة درهم بن الحسين لكنه لم يكـــن ذا شخصية قوية فطغت عليه شخصية يعقوب فإختاره المتطوعة زعيما لهم سنة ٢٣٧ هـــ / ٨٥١ م ، وإستطاع يعقوب هزيمة الخوارج فى إقليم سجستان و تمكن من السيطرة عليـــه والمناطق المجاورة له مستغلا ضعف الدولة الطاهرية التى إصطدم بهـــا فـــإحتلت جيوشـــه عاصمتها نيسابور سنة ٢٥٩ هـــ / ٨٧٢ م فى عهد الخليفة المعتمد وأسر محمد بن طاهر

آخر حكام الأسرة الطاهرية مخالفاً أوامر الخلافة العباسية بعدم التعرض للطاهريين مدعيـــاً أنه لبى رغبة أهل خراسان للتخلص من سلطان بنى طاهر .

إتسع ملك يعقوب بن الليث الصفارى حتى أصبح يضم خراســـان ، وسجســـتان ، وكرمان ، وفارس ، وأرسل إلى الخليفة العباسى يطلب منه إقراره على حكم هذه البـــلاد لكن الخليفة رفض ذلك وأمره بالإنصراف عن خراسان إلى ولايته ، فتحدى يعقوب أوامر الخليفة العباسى وتقدم بجيوشه نحو طبرستان ، ومن ثم أعلن الخليفـــة المعتمـــد فى ســـنة ٢٦٠هـــ / ٨٧٣ م أن يعقوب مغتصب وخارج عن الخلافة العباسية .

لم يأب يعقوب بالخليفة العباسى فتقدم نحو الأهواز ودخل مدينة رامهرمز فـــإضطرب الخليفة لذلك وإضطر أن يعلن موافقته على تولية يعقوب علــــى خراســـان وطبرســـتان وجرجان والرى وفارس وشرطة بغداد ، ومع هذا أعلن يعقوب أنه سيتقدم بجيشه نحـــــو بغداد .

وفى سنة ٢٦٢ هـــ / ٨٧٥ م تمكن جيش الموفق أخو الخليفة العباسى المعتمد هزيمـــة يعقوب الذى إرتد إلى نيسابور ، وعلى الرغم من ذلك فقد سعى الموفق طلحة إلى التفاهم مع يعقوب بن الليث حتى يتفرغ للقضاء على ثورة الزنج .

وفى سنة ٢٦٥ هـــ توفى يعقوب بن الليث بعد أن نجح فى تكوين دولتـــه وتوطيـــد سلطانه فى معظم أرجاء فارس . وقد اشتهر بحسن التدبير ، فكان يحسن إختيـــار رجالـــه كما يحسن تنظيم جيوشه وإعدادها ، وإمتلأت خزائنه بالأموال حتى قيل أنه ترك خمســـين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار .

ولما توفى يعقوب بن الليث أقر الموفق طلحة أخاه عمرو بن الليث على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان والسند وكرمان فضلاً عن الشرطة ببغداد ، وبذلك تولى عمرو حكم ما كان بيد أخيه .

لكن الأمور ساءت بين الدولة الصفارية والخليفة العباسى وذلك عندما طلب عمرو ابن الليث من الخليفة المعتمد على الله أن يعهد إليه بولاية ما وراء النهر التى يسيطر عليها السامانيين فعزل المعتمد عمرو بن الليث و لم يعترف له بشرعية حكمه للبلاد التى تحت إمرته ، وقلد محمد بن طاهر بلاد خراسان فأناب الأخير عنه فيها رافع بن هرثمة. وأعلن فى سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٥ م لعن عمرو بن الليث على المنابر .

تقدمت جيوش الخليفة المعتمد بقيادة الموفق فى سنة ٢٧٣ هـ لمحاربة عمرو بن الليث فإنتصرت عليه وفتحت فارس ومع هذا فقد عاد أدراجه ووافق المعتمد على تولية عمرو على كل ولاياته فى سنة ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م .

وفى سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م وُلى المعتضد الخلافة فإستهلها بعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وإعادتها إلى عمرو بن الليث الذى أصر على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر التى كانت بيد إسماعيل بن أحمد السمانى ، فكانت هذه الفرصة المناسبة للقضاء على الدولة الصفارية فأسرع المعتضد بالموافقة ، وفى سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م أعلن عزل إسماعيل السامانى وتولية عمرو بن الليث .

وفى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م هُزم عمرو بن الليث هزيمة منكرة ووقع أسيراً فى يد أعدائه السامانيين وأُرسل إلى بغداد فقُتل بعد وصوله بقليل ، فتولى حكم الدولة الصفارية بعد عمرو حفيده طاهر بن محمد سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م إلا أنه لم يكن له من الأمر شىء لإستبداد سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث بالسلطة ، حيث قبض عليه وعلى

أخيه يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث سنة ٢٩٦ هـ وأرسلهما إلى بغداد ، ثم تغلب عليه الليث بن على بن الليث الصفار فإستنجد السبكرى بالخليفة المقتدر فأمده بجيش بقيادة مؤنس الخادم سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م فحلت الهزيمة بالليث الصفارى ، وإنتهى الأمر أخيراً بسقوط الدولة الصفارية بعد القبض على محمد بن على بن الليث الصفارى ثم السبكرى سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م .

ومما لا شك فيه أن ضعف الدولة الصفارية و إنهيارها يرجع إلى عدة أسباب أهمها أن الخلافة العباسية وقفت موقفاً عدائياً ضد الصفاريين وحاولت أكثر من مرة القضاء عليهم حتى سقطت دولتهم ، فضلاً عن موقف السامانيين العدائى للخلافة العباسية .

هذا إلى جانب عداء الدولة الصفارية للسامانيين المجاورين لهم والذين إستطاعوا هزيمتهم مما ترتب عليه ضعف الدولة الصفارية . وأخيراً مناوأة بعض قوادهم ولا سيما سبك السبكرى غلام عمرو بن الليث الذى كان لثورته أثر كبير فى إنهيار الدولة الصفارية وإنهيارها .

جـ - الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ):

نصر الأول بن أحمد	٢٦١ هـ / ٨٧٤ م
إسماعيل بن أحمد	٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م
أحمد بن إسماعيل	٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م
نصر الثانى بن أحمد	٣٠١ هـ / ٩١٣ م
نوح الأول بن نصر	٣٣١ هـ / ٩٤٢ م
عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣ هـ / ٩٥٤ م
منصور الأول بن نوح	٣٥٠ هـ / ٩٦١ م
نوح الثانى بن منصور	٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م
منصور الثانى بن نوح الثانى	٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م
عبد الملك الثانى بن نوح الثانى	٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م

السامانيون أسرة فارسية من مدينة بلخ كانت تدين بالزرادشتية ، ثم أسلم جدهم سامان وسمى إبنهم بإسم أسد تيمناً بإسم والى الأمويين على خراسان أسد بن عبد الله القصرى .

وكان لأسد بن سامان أربعة أبناء ظهر أمرهم فى أيام الخليفة المأمون الذى ولى أولاد أسد الأربعة سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م على بعض الولايات ، فولى نوح على سمرقند وأحمد على فرغانة ويحيى على الشاش " طشقند " وإلياس على هرات " أشروسنة " ، وبذلك بدأ سلطانهم فى بلاد ما وراء النهر .

وكان أحمد بن أسد أطول الأخوة عمراً وقد أنجب سبعة أبناء إشتهر منهم إسماعيل ونصر ، الذى خلف أباه على حكم سمرقند وفرغانة والشاش وقسم من الصغد ، وإتخذ سمرقند عاصمة له .

وفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م أصدر الخليفة المعتمد أمراً بتولية نصر بن أحمد السامانى ولاية بلاد ما وراء النهر ، فكان هذا بداية الدولة السامانية ، فإتخذ نصر من مدينة بخارى عاصمة لها .

وخلف نصر بن أحمد على حكم هذه الدولة أخوه إسماعيل الذى هزم عمرو بن الليث الصفارى وأسره ، وضم إسماعيل أراضى الدولة الصفارية فى خراسان وسجستان كما إستولى على إقليم طبرستان بعد أن إنتصر على واليها محمد بن زيد العلوى .

ظلت الولاية وراثية فى البيت السامانى نحو مائة سنة أخرى نتيجة لما بذله السلمانيون من جهود لتوطيد ملكهم فيما وراء النهر ، فضلاً عن النظم الإدارية التى وضعها نصر بن أحمد السامانى ، وقد عمل السامانيون فى الوقت نفسه على توسيع حدود دولتهم شرقاً

فجاهدوا الأتراك الوثنيين فى أواسط آسيا ونشروا الإسلام بينهم ، فصارت تركستان سنداً للإسلام .

وقد حرص السامانيون على التودد إلى الخلفاء العباسيين والتمسك بطاعتهم ، فسمح الخليفة لهم بذكر أسمائهم فى الخطبة بعد إسمه وضرب هذا الإسم إلى جانب إسم الخليفة على السكة ، كما حرص السامانيون على الإعتراف بالولاء للخلافة العباسية وعلى مطاردة المذاهب غير السنية وخاصة الإسماعيلية .

ويمتاز العصر السامانى بنهضة علمية وإدارية ضخمة ، فقد حرص ملوك الدولة السامانية على جمع الكتب إحياءً للغة الفارسية وترجمة أمهات الكتب العربية إلى اللغة الفارسية ، ويمكن القول أن حكم السامانيين يمثل بدء النهضة الفارسية الفعلية ، فقد كانت اللغة الفارسية هى اللغة الرسمية فى عهد معظم أمرائهم ، وأصبحت عاصمتهم بخارى أهم المراكز العلمية الإسلامية حيث عاش عدد كبير من العلماء والأدباء أمثال الشاعر الفارسى الكبير " الرودكى " ، والشاعر " الدقيقى " الذى نظم لنوح بن نصر السامانى منظومة عن تاريخ ملوك الفرس فى عهودهم الأولى وهى عبارة عن ألف بيت ، ثم أكملها " الفردوسى " ووضع ملحمته الشهيرة " الشاهنامة " .

وفى عهدهم نشطت الحركة العلمية فالطبيب الشهير أبا بكر محمد بن زكريا الرازى كان صديقاً للأمير منصور بن إسماعيل السامانى فألف له كتابه المنصورى . كما دعا نوح بن نصر السامانى الطبيب بن سينا لعلاجه و أن الأخير أقام مدة فى بخارى .

وقد بلغت النهضة الفنية ذروتها فى العصر السامانى ، ومن أهم مبانيهم الرائعة مشهد إسماعيل الذى بناه إسماعيل بن أحمد ثانى حكام الدولة السامانية فى مدينة بخارى .

كذلك نشطت صناعة الخزف خاصة فى مدينة طشقند ، كما إمتازت سمرقنـــد بصناعـــة الورق .

لكن الدولة السامانية لم يكتب لها أن تعيش طويلا بسبب النزاع بين أفراد الأســـرة السامانية على الحكم ، و نزاعهم مع البويهيين بين سنتى ٣٥٦ - ٣٦١ هـــــ / ٩٦٧ - ٩٧١ م ، إضافة إلى تمرد بعض القادة و إستعانتهم ببنى بويه .

فإنتهت الدولة السامانية بعد مائة و سبعين عاما على يد محمود بن سبكتكين حـاكم السامانيين فى مدينة غزنة ، فإستولى على نيسابور و بخارى و إســـتقر ملكـــه بخراســـان وخطب فيها للخليفة القادر بالله و ذلك فى سنة ٣٨٩ هـــ / ٩٩٩ م .

د – الدولة الغزنوية : (٣٥١ – ٥٨٢ هـ)

البتكين	٣٥١ هـ / ٩٦٢ م
إسحق	٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م
بلاتكين	٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م
بيرى	٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م
سبكتكين	٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م
إسماعيل	٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م
محمود : يمين الدولة	٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م
محمد : جلال الدولة	٤٢١ هـ / ١٠٢٠ م
مسعود الأول ناصر دين الدولة	٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م
مودود : شهاب الدولة	٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م
مسعود الثانى	٤٤١ هـ / ١٠٤٨ م
على أبو الحسن بهاء الدولة	٤٤١ هـ / ١٠٤٨ م
عبد الرشيد : عز الدولة	٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م
طغرل	٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م
فروخ شاه : جمال الدولة	٤٤٤ هـ / ١٠٥٥ م
إبراهيم : ظهير الدولة	٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م
مسعود الثالث : علاء الدولة	٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م
شيرزاد : كمال الدولة	٥٠٨ هـ / ١١١٤ م
أرسلان : سلطان الدولة	٥٠٩ هـ / ١١١٥ م
بهرام شاه : يمين الدولة	٥١٢ هـ / ١١١٨ م
خسرو شاه : معز الدولة	٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م
خسرو مالك : تاج الدولة	٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م

أسس الدولة الغزنوية أحد المماليك السامانيين وهـــو الأمـــير البتكـــين الـــذى ولاه السامانيون خراسان ثم ولاية " غزنة " فى جبال سليمانى شمال الهند ، فأسس هناك الدولـــة الغزنوية سنة ٣٥١ هـــ / ٩٦٢ م التابعة إسماً للسامانيين .

وبعد وفاة البتكين آلت الأمور إلى زوج إبنته ومملوكه ناصر الدين سبكتكين الـــذى إستولى على بعض المناطق الجبلية ونجح فى إخماد الثورات فى بلاد ما وراء النهر ، فكافـــأه نوح بن منصور السامانى سنة ٣٨٤ هـــ / ٩٩٤ م بتوليته على ما كان بيد حميه فى بـــلاد الأفغان حالياً حيث أسس دولة حاضرها بشاور ، فأثار بذلك مخاوف ملوك الهند المجاورين بعد أن إستولى على جزء كبير من بلادهم حيث مدينة كابول حاضرة بلاد الأفغان ، لكن " جيبال راجا لاهور " رأى فى لإستيلاء سبكتكين على شمال بلاده تهديداً لمملكته .

دارت حروب طويلة بين سبكتكين وجيبال الهندى إنتهت بإستيلاء سبكتكين علـــى جزء كبير من بلاد جيبال و أسره سنة ٣٦٩ هـــ / ٩٧٩ م ، ثم أطلق سراحه بعد تعـــهده بدفع الجزية للملك الغزنوى .

ولما توفى سبكتكين سنة ٣٨٧ هـــ / ٩٩٧ م عهد إلى إبنه إسماعيل بأمور دولتـــه ، ولكن محمود الإبن الأكبر لسبكتكين عزل أخاه وتولى حكم الدولة الغزنزية .

وصلت الدولة الغزنوية فى عهد محمود بن سبكتكين ٣٨٨ - ٤٢١ هـــ / ٩٩٨ - ١٠٣٠ م أوج قوتها ، فقد ألغى إسم السامانيين من الخطبة وخطب للخليفـــة العباســـى القادر بالله الذى لقبه بيمين الدولة وأمير الملة .

كذلك إتبع السلطان محمود الغزنوى سياسة توسعية على حساب الهند ، فقد غـــزا بلاد الهند إثنتى عشرة مرة مدفوعاً فى ذلك بدافع الجهاد الدينى والرغبة فى نشـــر الإسلام

بين الهنود الوثنيين ، فإستطاع أن يبسط نفوذه إلى ما وراء قشمير و البنجاب ، وأن يجعل من إقليم البنجاب ولاية إسلامية قاعدتها مدينة لاهوز ويحكمها ولاة مسلمون من قبل الدولة الغزنوية التى أعتبرت أول دولة إسلامية فى الهند .

ومن المعروف أن هذه الأقاليم الشمالية الهندية التى إنتشر فيها الإسلام مثل السند والبنجاب والبنغال تكون ما يسمى الآن بدولة الباكستان الإسلامية .

كذلك طمع محمود الغزنوى بحكم السامانيين فهزمهم فى مرو سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م وأزال ملكهم من خراسان وتلقب بلقب السلطان بعد أن كان يلقب بلقب الأمير، ثم إستغل ضعف الدولة البويهية وضم إليه ما كان بأيدى بنى بويه فى الرى وبلاد الجبل .

توفى محمود الغزنوى سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م فتولى مسعود بن محمود أمر الدولة الغزنوية ثم مودود بن محمود ، وقد إضطربت الدولة الغزنوية نتيجة لتنافس أبناء محمود على السلطة ، لكن حركة الفتوحات إستمرت طيلة عهود خلفائه إلى أن ضعفت على أيدى السلاجقة الذين ظهروا فى خراسان وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالغزنويين سنة ٤٣١هـ / ١٠٣٩ م مما جعل النفوذ الغزنوى ينحسر تدريجيا عن خراسان ، ثم سقطت دولتهم نهائيا على يد شهاب الدين الغورى سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م . ومن ثم تداعى سلطان الغزنويين فى الهند ، وإنقسمت إلى أسرات إسلامية مستقلة .

ومن الجدير بالملاحظة أن الغزويين قد شجعوا العلم والأدب خاصة فى عهد السلطان محمود بن سبكتكين الذى إلتف حوله كثير من العلماء ، وقد سادت الثقافة الفارسية فى عصرهم بالرغم من أنهم أتراك حتى أنه يقال أن اللغة الأردية التى هى لغة الهند والباكستان هى مزيج من الفارسية والسنسكريتية ظهرت على عهد السلطان محمود الغزنوى

وصارت لغة الهند الإسلامية ، وعاش فى كنف الغزنويين العالم المؤرخ أبو الريحان البيرونى الخوارزمى (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) الذى ألف عدة كتب بالعربية والفارسية منها كتاب القانون المسعودى الذى أهداه إلى السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، والمؤرخ الفارسى أبا الفضل محمد بن حسين البيهقى (ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م) الذى كتب بالفارسية تاريخا للسلطان مسعود عرف بتاريخ البيهقى .

عصر بنى بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ)

جاء هذا العصر الفارسى الممثل فى بنى بويه فى فارس والعراق لمناهضة النفوذ التركى الذى سيطر على الخلافة العباسية ، بإستنجاد الخليفة العباسى الراضى بإبن رائق سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٦ م ، وما ترتب على ذلك من إنشاء منصب أمير الأمراء الذى لم يحقق ما كانت ترجوه الخلافة من إزدهار ، بل زاد فى مشكلاتها وتسلط الأمراء على الخلفاء حتى إضطروهم أمام الخوف منهم إلى الفرار من بغداد أحيانا ومن سامراء أحيانا أخرى ، وتطور الأمر حتى أصبح الخلفاء ألعوبة فى يد هؤلاء الأمراء .

وقد سميت الفترة ما بين سنتى ٤٣٤ - ٤٤٧ هـ بالعصر البويهى لسيطرة البويهيين على الخلافة العباسية فى تلك الفترة والتى زادت على مائة عام .

وينتسب البويهيون إلى زعيم فارسى يدعى بويه من إقليم الديلم فى جنوب غرب بحر قزوين ، وقد نبغ من أبناء بويه ثلاثة هم : حسن وعلى وأحمد ، وقد إنتهلوا الجندية ، وإستطاع أكبرهم على بن بويه حين ولاه مرداويج بن زياد الديلمى ، الذى كان قد إستقل بمنطقة طبرستان والديلم ، إقليم الكرج بين همذان وأصفهان سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م .

غير أن مقتل مرداويج على يد جنوده سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م كان فرصة مواتية لعلى بن بويه لتحقيق أطماعه ، فإستولى على مدينة شيراز وجعلها مقرا لحكمه الذى كان يمتد على إقليم الكرج بين همذان وأصفهان ، وإستقل أخوه الحسن " ركن الدولة " ببلاد الجبال ، بينما إحتل الأخ الثالث أحمد بن بويه بلاد كرمان والأهواز " خوزستان "، وصار بذلك مشرفا على العراق للتدخل فى شئونها إذا سنحت له الفرصة .

ومما لا شك فيه أن الأحوال السياسية والإقتصادية فى العراق قد ساءت فى ذلك الوقت بسبب تنافس الأمراء على منصب أمرة الأمراء حسبما سلف القول ، مما جعل العراقيون يتطلعون إلى أحمد بن بويه ليخلصهم من ظلم الأتراك وإستبدادهم ، فدخلها فى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وإلتقى بالخليفة المستكفى الذى إستقبله إستقبالا حافلا ومنحه لقب معز الدولة وقلده منصب أمير الأمراء ، كما منح أخاه عليا لقب عماد الدولة ، وأخاه الحسن لقب ركن الدولة .

وهكذا حل البويهيون محل الأتراك فى حكم فارس والعراق فنعمت الخلافة العباسية بشىء من الإستقرار وطالت مدد حكم الخلفاء ، لكن لا يمكننا أن نتصور أن الخلفاء العباسيين كانوا فى وضع أفضل من وضعهم السابق فى عصر نفوذ الأتراك ، بل إزدادت أحوالهم سوءا ، وأصبحوا مجرد تابعين للبويهيين يمثلون رمزا لا حول له ولا قوة ، وقد حدث هذا منذ اللحظات الأولى لدخول معز الدولة بغداد ، فقد خصص للخليفة المستكفى كل يوم خمسة آلاف درهم وكثيرا ما كانت تتأخر عليه .

على أنه يلاحظ أنه ظل للخليفة بعض مظاهر السلطة كالخطبة والسكة وتعيين القضاة وخطباء المساجد ، بينما إستأثر البويهيون بالحكم وإتخذوا لقب ملك أو شاهنشاه بدلا من لقب أمير الأمراء الذى كان سائدا فى عصر نفوذ الأتراك .

وتشير الروايات التاريخية إلى أن الخلفاء قد إستسلموا لبنى بويه وكانوا يصرحون فى مناسبات كثيرة بعدم مسئوليتهم تجاه ما تموء به الدولة العباسية من أحداث ، فعندما أغار الروم على مدينة الرها ومنطقة الجزيرة سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م إستنجد جماعة من أهل هذه البلاد بالخليفة العباسى المطيع وسلطانه عز الدولة بختيار البويهى ، فوعدهم الأخير بالدفاع عنهم وأرسل إلى الخليفة يطلب منه مالا ينفقه على الجند فقال المطيع : " إن الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى وتجبى إلى

الأموال ، وأما إذا كانت حالتى هذه فلا يلزمنى شيء من ذلك وإنما يلزم من البلاد فى يـده وليس لى إلا الخطبة فإن شئتم أن أعتزل فعلت " .

ومما لا شك فيه أن سياسة بنى بويه قد أدت إلى إشاعة الفوضى والإضطرابات حتى أدت فى النهاية إلى القضاء على سلطانهم على يد الأتراك السلاجقة ، وكان لذلك أسباب منها : -

١- الفتن المذهبية :

حاول بنو بويه نشر مذهبهم الشيعى داخل بغداد ، فقد أمر معز الدولة الشيعة ببغداد أن يكتبوا على المساجد لعن معاوية وبعض الخلفاء الراشدين ، وفى سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣ م فى العاشر من المحرم أمر معز الدولة الناس أن يظهروا الحزن على الحسين ، ولم يتوقف هذا النشاط الشيعى حتى أواخر أيام بنى بويه ، وقد انتهز الفاطميون فرصة تسلط البويهيون على الخلافة العباسية ، ونظموا أمر الدعوة لمذهبهم فى فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر .

وإزاء هذا المد الشيعى فقد وجد معارضة سنية ، ففى سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م طالبت السلطة البويهية من الشيعة أن يمتنعوا عن إظهار الحزن فى المناسبات الشيعية خوفا من الفتنة فوعدوا ثم أخلفوا ، ونتج عن ذلك مذبحة مروعة وتكررت هذه الحوادث التى راح ضحيتها كثير من السنة والشيعة .

٢- ثورات الجند :

من اسباب إضطراب الأحوال فى عهد البويهيين ثورات الجند ، ففى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م شغب الجند على معز الدولة مطالبين بأرزاقهم واضطر إلى ابتزاز أموال الناس لإيصال الأموال إلى الجند ، وأقطع قواده الكثير من الضياع والقرى فأهملوها فقل الإنتاج ووقع الظلم على الفلاحين ، كما عجز معز الدولة عن إحداث توازن بين

العنصرين اللذين يتكون منهما جيشه : الأتراك والديلم ، فكان يكثر العطاء للأتراك حتى حسدهم الديلم ونتج عن ذلك قيام الفتن ونهب الأموال .

كما انتشر اللصوص وقطاع الطرق نتيجة لضعف سلطان البويهيين وعدم سيطرتهم على الجند ، ففى سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م فى عهد السلطان جلال الدولة نجد الجند يتسترون على اللصوص ففعلوا أفعالا قبيحة ، وفى سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤م ثاروا على وزير الملك الرحيم " آخر سلاطين بنى بويه " بسبب تأخر أموالهم ، وإضطر الوزير للإختفاء فى دار الخلافة ، و لم يمتثلوا لأوامر الخليفة ونهبوا كل شخص يرد إلى بغداد فأحجم الناس عن الدخول إليها ، فغلت الأسعار وقلت الأقوات .

٣- صراعات البيت البويهى :

مما لا شك فيه أن الخلافات والحروب المتعددة داخل الأسرة البويهية كان سببا رئيسيا فى إنهيار الدولة البويهية ، وقد بدأ الصراع مبكرا بين عز الدولة بختيار بن معز الدولة وبين ابن عمه عضد الدولة وانتهى الأمر بمقتل عز الدولة سنة ٣٦٧هـ/ ٩٨٦م واستيلاء عضد الدولة على السلطة فى بغداد ، واستمر هذا الصراع حتى أواخر أيامهم فبعد وفاة " أبى كاليجار " وتولى ابنه الملك الرحيم قامت الفتن بين أبناء أبى كاليجار حول السيطرة على بعض مدن فارس والعراق ، وقد مهدت هذه الفتن والإضرابات إلى سقوط الدولة البويهية على يد الأتراك السلاجقة عندما دخل زعيمهم طغرلبك سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م مدينة بغداد وقضى على آخر ملوك البويهيين "الملك الرحيم" .

الحياة العلمية و الأدبية :

ازدهرت الحياة العلمية والأدبية فى عهد بنى بويه ، فقد بالغ عضد الدولة فى إكرام العلماء فتضاعفت فى أيامه المصنفات الرائعة فى مختلف العلوم . فمنها كتاب الحجة فى

القراءات السبع لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى ، والكنّاش العضدى فى الطب لعلى بن العباس المجوسى ، وكتاب الإيضاح فى النحو لأبو على الفارسى ، وعمل له العالم الفلكى أبو الحسين بن عمر الرازى قرة تمثل السماء وزنها ثلاثة آلاف درهم . وكتـــاب التاجى فى أخبار بنى بويه لأبى إسحق إبراهيم الصابى . وإلى جانب ذلك كان عضد الدولة شاعراً يحب الشعراء ، فكان المتنبى واحداً ممن إتصلوا به ومدحوه بالقصائد .

وفى هذا الصدد نشير أيضاً أن وزراء بنى بويه قد عملوا على إزدهار الحياة العلميـــة ومن أشهرهم : أبو الفضل بن العميد (ت ٣٦٠ هـــ / ٩٧٠ م) وهو من مدينـــة قُـــم الفارسية ، وكان وزيراً للملك ركن الدولة صاحب الرى وهمذان وأصفهان ، فأشـــرف على تربية وتعليم ولده عضد الدولة و تدبير ملكه فى العراق وفارس فلقبه الأخير بالأستاذ الرئيس ، وكان من أتباع الوزير بن العميد الصاحب إسماعيل بن عباد الـــذى خلفــه فى الوزارة بعد ذلك (ت ٣٨٥ هـــ / ٩٩٥ م) وقد لقب بالصاحب لأنه كان يصحب ابن العميد ثم سمى بهذا الإسم كل من تقلد الوزارة بعده ، وكان ابن عباد بارعاً فى فن كتابـــة الرسائل وله كتاب فى الأعياد وفضائل النوروز .

كذلك عاصر أيام بنى بويه عدد من الأدباء والعلماء كالفارابى والخوارزمى والمتنـــبى فضلاً عن جماعة إخوان الصفا الذين ظهرت أفكارهم الدينية الشيعية و وضعوا رســـائلهم فى عهد البويهيين .

الأعمـــال العمرانيـــة :

ساهم البويهيون فى تقدم وإزدهار بلاد العراق وفارس وبخاصة فى عهد عضد الدولة الذى إستمر خمسة وثلاثين سنة ، فحقق للدولة العباسية إســـتقراراً وإزدهـــاراً بفضـــل مشروعاته العمرانية مثل : " السد العظيم " الذى شيده عند مدينة شيراز بفارس وعُرف

باسم " باندى أمير " أى سد الأمير ، و" سد السهيلة " الذى أقامه بالقرب من بلدة النهروان فى العراق .

ومن الأعمال العمرانية أيضا التى تنسب إلى عضد الدولة " المشهد العظيم " الذى شيده على قبر الإمام على بن أبى طالب بمدينة النجف ، والمارستان العضدى الذى بناه فى بغداد لعلاج المرضى .

كما إهتم عضد الدولة بتعمير مدينة بغداد التى خربتها الفتن ، وأنشأ الحدائق والمتنزهات ، وأصلح الطرقات خاصة طريق العراق - مكة . ووزع الأموال على الأئمة والمؤذنين والقراء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد .

وقد إستعان عضد الدولة بوزيره نصر بن هارون فى إدارة شئون الدولة ، وأذن له فى بناء وترميم الكنائس والأديرة .

دولة السلاجقة (٤٤٧ - ٥٩٠ هـ)

السلاجقة عشائر تركية ينتسبون إلى سلجوق بن دقاق أو تقاق ، بمعنى قوس الحديد، وينتمون إلى قبيلة كبيرة من قبائل الترك تسمى الغز ، وقد عاشوا فى أول أمرهم فى سهول التركستان بوسط آسيا ، ثم نزلوا إلى بلاد ما وراء النهر حيث إعتنقوا الإسلام على المذهب السنى .

وبعد وفاة سلجوق بن دقاق إنتقلوا إلى بخارى وسمرقند فى أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ليتعاونوا مع السامانيين فى حماية الثغور الإسلامية الشرقية .

وبعد سقوط الدولة السامانية إنتشرت جموع السلاجقة غربا نحو خراسان بزعامة طغرلبك حفيد سلجوق بن دقاق وإستولى على نيسابور سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م .

وقد تمكن طغرلبك من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ومد السلاجقة نفوذهم على كل خراسان بينما إقتصر نفوذ الغزنويين على أفغانستان منذ سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م ، ثم تمكن طغرلبك من السيطرة على الرى سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م ، وعلى أصبهان سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م وإتخذ الأخيرة قاعدة لدولته بينما إنصرف بعض زعماء السلاجقة إلى العمل لحسابهم الخاص فتوسعوا فى بلاد فارس وشمال العراق وأرمينيا وآسيا الصغرى .

وفى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م دخل طغرلبك بغداد تلبية لطلب الخليفة العباسى القائم بأمر الله فكان دخوله إعلانا بسقوط الدولة البويهية وقيام الدولة السلجوقية محلها، فى الوصاية على الخلافة العباسية وتدعيما للتعاون السلجوقى العباسى تزوج الخليفة القائم من خديجة " خاتون أرسلان " بنت داود أخى السلطان طغرلبك .

ترك الملك الرحيم آخر أمراء بنى بويه مقاليد السلطة فى بغداد لفئة من أعوانه ، إلا أن المظفر أبا الحرس أرسلان المعروف بالبساسيرى كان أعظمهم شأنا ولم يتورع عن تدبير مؤامرة للقضاء على الخلافة العباسية وإدخال بغداد تحت لواء الخلافة الفاطمية ، وكثر حساده ومنهم الوزير أبو القاسم على بن مسلمة الذى أخذ يدبر الدسائس ضد البساسيرى ويوغر صدر الخليفة حتى غضب عليه فهرب إلى مدينة الرحبة فى الشمال على الفرات .

وعندما دخل طغرلبك بغداد اتصل البساسيرى بالخليفة الفاطمى بالقاهرة المستنصر بالله طالبا مساعدته ليتمكن من العودة إلى بغداد وطرد السلاجقة منها ، فاستجاب الخليفة الفاطمى لطلبه وأمده بخمسمائة ألف دينار ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف قوس ، وألوف السيوف والرماح والنشاب .

وقد واتت البساسيرى الفرصة عندما خرج طغرلبك فى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨ م لمحاربة أخيه إبراهيم ينال ، فهاجم البساسيرى بغداد واستولى عليها ، وخلع الخليفة العباسى القائم وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر . ثم تقدم البساسيرى صوب الشرق العباسى للإستيلاء على مدنه باسم الخليفة الفاطمى . غير أن طغرلبك لم يلبث أن عاد إلى بغداد وهزم البساسيرى وقتله وأعاد الخليفة العباسى القائم ، وتزوج من ابنته سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م .

تولى حكم الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان سنة ٤٥٥-٤٦٥ هـ/ ١٠٦٣-١٠٧٢ م ، وكان قائدا ممتازا قضى معظم حكمه فى حروب متتابعة لتوسيع دولته .

استهل ألب أرسلان حكمه بالسير إلى الشام للإستيلاء على أراضيه لكى يحمى ظهره من الفاطميين قبل توجهه لمحاربة الروم ، فوصل إلى حلب ، واستطاع ألب أرسلان أن ينتزع من أميرها محمود بن صالح بن مرداس اعترافا بسلطانه عليه والخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله . ثم وجه ألب أرسلان قائدا تركيا اسمه أتسز بن واق الخوارزمى إلى جنوب الشام ففتح مدينة الرملة وبيت المقدس وما جاورهما بإستثناء عسقلان التى ظلت خاضعة للفاطميين .

وأهم حروب ألب أرسلان هى حربه مع البيزنطيين ففى سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م خرج الإمبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين على رأس جيش عظيم بلغ تعداده مائتى ألف جندى لغزو أراضى المسلمين ووصل إلى ملاذكرد من من أعمال خلاط على الفرات الأعلى شمال بحيرة " فان " .

وعندما علم ألب أرسلان بذلك وكان فى مدينة خوى من بلاد أذربيجان ، و لم يكن معه جيش يكافىء جيش الروم ، أرسل إلى امبراطور الروم يسأله المهادنة لكن الإمبراطور أصر على مواصلة الزحف ، فقرر ألب أرسلان مواجهته بمن معه من الجنود وكان عددهم خمسة عشر ألف جندى ، واشتبك الجيشان فى قتال عظيم عند ملاذكرد وانتصر ألب أرسلان انتصارا رائعا وقتل فى هذه المعركة العديد من الروم ، ووقع رومانوس أسيرا ، لكن ألب أرسلان أفرج عنه بعدما تعهد بأن يفدى نفسه بألف ألف وخمسمائة دينار ،وأن يرسل إلى السلطان السلجوقى عساكر الروم فى أى وقت طلبها ، وأن يطلق كل أسير فى بلاد الروم ، وأن تعقد الهدنة بينهما لمدة خمسين سنة .

وقد أكرم ألب أرسلان الإمبراطور بعد عقد هذا الصلح ، إذ أعطاه عشرة آلاف دينار يتجهز بها ، كما سرح له جماعة من البطارقة ، ثم رافقه مسافة فرسخ ، ثم سير معه جنودا يوصلونه إلى مأمنه .

ومن نتائج هذه الموقعة أن الطريق أصبح مفتوحا أمام السلاجقة ليتوسعوا فى آسيا الصغرى واستقرار الملك الإسلامى لأول مرة فى هذا الجزء من أملاك الدولة البيزنطية . فقد أرسل ألب أرسلان ابن عمه سليمان بن قتلمش إلى آسيا الصغرى فاستوطنها برجاله وأقام دولة سلاجقة الروم والتى استمرت إلى أن قبض عليها الأتراك العثمانيون فى أواخر القرن الرابع . كما كانت هذه المعركة من أهم الأسباب التى أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م .

توفى ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م على أثر ضربة بسكين من قبل أحد حراس قلعة سمرقند ويدعى سيف الخوارزمى .

تولى حكم الدولة السلجوقية بعد ألب أرسلان ابنه جلال الدين ابو الفتح ملكشاه ، وقد واصل الحرب ضد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فاستولى قائده أتسز على دمشق سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ثم عين أخاه تتش ملكا على بلاد الشام يتوارثها أبناؤه و أحفاده من بعده ، فقامت بذلك دولة سلاجقة الشام .

بلغت الدولة السلجوقية فى عهد ملكشاه ذروة إتساعها ، فإمتدت من فلسطين جنوبا إلى أفغانستان شرقا وآسيا الصغرى غربا . توثقت العلاقات السلجوقية العباسية عندما تزوج الخليفة المقتدى إبنة ملكشاه وأنجب منها ولدا أسماه أبا الفضل جعفر ، غير أن العلاقة بين ملكشاه والخليفة ساءت ذلك أن الخليفة قد اوصى بولاية عهده لإبنه المستظهر، وفى سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م دخل ملكشاه بغداد وأمر الخليفة أن يخلع المستظهر ويوصى بولاية العهد لإبن إبنته جعفر ، وطلب أن يسلم له بغداد و أن يخرج إلى البصرة ، إلا أن ملكشاه توفى فى نفس السنة .

ولى المستظهر الخلافة بعد أبيه المقتدى وتزوج من خاتون إبنة ملكشاه ، وتولى بركياروق فوقع الخلاف بينه وبين اخوته وأعمامه مما زاد من ضعف الدولة السلجوقية وتفككها وعجزها عن صد هجمات الغز حتى سقطت بوفاة آخر سلاطينها سنجر سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م .

الأتابكيات السلجوقية :

أ- إعتماد الدولة السلجوقية على المماليك الترك :

إعتقد السلاجقة أن العرب والفرس لا يخلصون فى خدمتهم فاعتمدوا على المماليك الترك ، وقد أحاط نظام الملك نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية فقوى بهم نفوذه إلى حد كبير وإزداد نفوذ هؤلاء المماليك فكتب السلطان مالكشاه لوزيره نظام الملك كتابا يقول له فيه : " إنك إستوليت على ملكى و قسمت ممالكى على أولادك و أصهارك و مماليكك ، كأنك شريك فى الملك ، أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ " فرد عليه الوزير نظام الملك : " كأنك عرفت اليوم أنى مساهمك و فى الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتى مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، و متى سلبتها سلب " فلم يمض شهر واحد على مقتل الوزير سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٢٢ م حتى توفى السلطان ملكشاه . ثم تزايد نفوذ المماليك حتى انهم عزلوا إبنه محمود وولوا ابنه بركياروق السلطنة.

ب - المماليك الأتابكة :

الأتابكة مفردها أتابك وهو لفظ تركى معناه " الأب الأمير " أو " المربى لإبن السلطان " ، وكان عطاء الجندى أيام السامانيين يدفع نقدا وفى عهد نظام الملك جعله إقطاعا متعلقا بالأرض ، فكانت القلاع والمدن والولايات تمنح إقطاعا للقادة من مماليكهم الذين سموا الأتابكة وأول من تلقب بهذا الوزير نظام الملك الطوسى ، وقد كانت أراضى

فارس والشام مقسمة إلى إقطاعات عسكرية يحكمها مماليك السلطان ثم إتخـذ المماليك لأنفسهم جيوشا من المماليك ، وفور إنتهاء الحرب تقسم الأسهم من معسكر لآخر أو من قرية لأخرى ، ويعود المماليك إلى إقطاعاتهم .

جـ - الـدول الأتابكيـة :

إزداد نفوذ الأتابكة الذين بدأوا بالإستقلال بولايتهم فتفككت الدولة السـلجوقية بين الأتابكة ، و لم يبق منها غير سلاجقة الروم التى إستولى عليها العثمـانيون فى القـرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، ومن الدول الأتابكة :
شاهات خوارزم (٤٧٠ - ٦٢٨هـ) ، دولة بنى أرتق (٤٨٥ - ٦٢٩ هـ) ، أتابكة الشام (٤٩٧ - ٥٤٩هـ) ، دولة ماردين (٥٠٢ - ٨١١ هـ) .

وإنقرضت دولة السلاجقة بخراسان وبلاد الرى والجبل وبلاد ما وراء النهر على أيدى ملوك خوارزم : أتسز ، تكش ، علاء الدين . لكن هذه الدولة الخوارزمية سـقطت فى أيدى المغول فى عهد جلال الدين خوارزم شاه سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م .

٢-الدويلات المستقلة فى بلاد المغرب

ظهور النظام اللامركزى فى الدولة العباسية :

أيقن بنو العباس فى خلافتهم بعد أن أيقظوا دعاوى القومية فى بلاد الإسلام أنه لا مفر من إعطاء الإستقلال الداخلى للولايات غير العربية ومنها ولاية أفريقية وذلك لسببين :

الأول : مطالبة أهالى الولايات غير العربية بالإستقلال وإدارة بلادهم البعيدة عن مركز الخلافة نتيجة سوء تصرف العمال والولاة .

الثانى : قيام السياسة العباسية على الدعاوى بتقبيح نظام المركزية فى الحكم الذى وضعه المروانيون وكانوا يشنون به الغارة عليهم تنفيرا للأعاجم من حكمهم . وقد كانوا يواعدونهم إن هم أجابوهم إلى دعوتهم سيتمتعون بنوع من الإستقلال وكان من الطبيعى أن يكون إنتقال الحكم إلى العباسيين فاتحة إنقلاب سياسى تتطور به حياة الشعوب غير العربية فى ظل الدولة العباسية وتعويضها بنوع من الإستقلال الجزئى عن الخلافة العباسية القائم على إصطناع الأسر وهذا ما تم بولاية أفريقية فى عهد هارون الرشيد وإناطة إدارتها لإبراهيم بن الأغلب وجعلها وراثية فى عقبه .

الدولة الأغلبية : ١٨٤ - ٢٩٦ هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩ م

تعتبر دولة الأغالبة من أهم الدويلات التى قامت فى المغرب ومركزها القيروان وكانت تتكون من طرابلس وأفريقية وإقليم الزاب ، وكان منهجها فى الحكم إدماج

البربر فى العرب وتحويل نشاطهم فى الخارج والتوسع فى قارة أوربا . وإتسمت علاقتها مع الدول المجاورة لها على أساس القوة والسطوة . وتنسب هذه الدولة إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى وكان يتمتع بحسن التدبير والدراية بالحروب فضلا عن تفقهه فى الدين .

وقد سبق أن ذكرنا أن أهل أفريقية كرهوا ولاية محمد بن مقاتل العكى ، وأن هارون الرشيد قد ولى إبراهيم أفريقية بعد أن تعهد الأخير لهارون بأن يتصرف كعامل عباسى تابعا للخلافة العباسية ، وأن يستغنى عن مائة ألف دينار كانت ترسل من مصر إلى أفريقية سنويا مساعدة لوالى أفريقية فضلا عن أربعون ألف دينار ترسل من ولاية أفريقية إلى دار الخلافة ، على أن تكون الولاية فى بنى الأغلب ووافق ابن الأغلب على أن يكون للخليفة العباسى الحق فى تعيين قاضى القيروان وكذلك عزل الوالى الأغلبى إذا أساء التصرف بشرط أن تقيم واليا من بنى الأغلب بدلا منه .

إتخذ إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان عاصمة لدولته واستطاع إنشاء قوة عسكرية خاصة به وقد تكونت تلك القوة من البربرالمستعربة الذين عملوا جندا مرتزقة فى الجيش الأغلبى ، والصقالبة وهم جند من أصل أوربى كانوا يشترون صغارا من بلاد أوربا ويربون تربية عربية اسلامية وكانوا يعملون كخدم للدولة فى القصور أو يربون تربية عسكرية ويلحقون بجيش الدولة وكحرس للحكام والأمراء . وقد إستكثر إبراهيم بن الأغلب من جلب الصقالبة وأضاف إليهم بعد ذلك طائفة أخرى من السودان .

ورأى إبراهيم إجتناب الإقامة فى القيروان وأنشأ بالقرب منها قاعدة عسكرية فى جهة الجنوب الغربى عاصمة سماها العباسية ثم سميت بالقصر القديم وإنتقل إليها بأهله وحاشيته وعسكره وأصبح القصر القديم قاعدة الحكم فى البلاد فأمن على نفسه وإنقطعت الفتنة . وكان القصر القديم مدينة كاملة محاطة بسور قديم على أركان عالية

يقوم فيها الحراس وعلى غرار المدن الاسلامية فى العصور الوسطى يوجد فيها قصـــور الأمير وخاصته ومعسكر لجنده ، هذا إلى جانب الأسواق وحفرت الآبار داخل المدينـة التى كانت تقدم لأهلها حاجتها من الماء .

ونجح إبراهيم بن الأغلب فى القضاء على ثورات الخارجين مثل ثورة حمديـــس فى تونس سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢ م ، وهو رجل من أبناء العرب فأرسل إليه إبراهيم جنوده بقيادة عمران العامرى الذى نجح فى قمع هذه الثورة . كذلك قضى على ثورة عســكر إفريقية بقيادة فريش الكندى سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢ م وكانت ثورة مناهضة للخلافـــة العباسية ، ونجح عمران العامرى القائد الأعلى لجيوش الدولة الأغلبية فى القضاء علـــى هذه الثورة .

وفى سنة ١٨٩هـ/٨٠٥ م أخمد فتنة الجند فى طرابلس ، ومن أخطر الثورات الـتى نجح إبراهيم فى القضاء عليها ثورة قائده عمران العامرى والتى اســتمرت لمـدة عـــام أضحت البلاد خلاله نهبا للإضطراب والفوضى حتى بلغ هارون الرشيد الخبر فأرسل إلى إبراهيم الأموال لدفع رواتب الجند والتى كانت بمثابة السحر فى قلوب الثوار فـــإنفضوا من حول عمران الذى فر إلى الزاب .

ولما توفى إبراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦هـ/ ٨١١ م خلفه ابنه أبو العباس عبد الله ابن إبراهيم وإستمرت ولايته من سنة ١٩٦-٢٠١هـ/٨١٢ - ٨١٧ م . وتميز عـهده بالعنف وأوغر صدور العامة بإلغائه ضريبة الأعشار وتعويضها بخـــراج ثـابت علـــى الأراضى على كل فدان ثمانية دنانير دون حساب لسنوات الخصب ولسنوات الجـــدب وكان ذلك فى نظر العامة أول أمير خرج على أحكام الشريعة فكرهوه كما أساء لأخيه زيادة الله الذى كان قد أخذ له البيعة عند وفاة والدهما إبراهيم .

بعد وفاة عبد الله خلفه أخوه زيادة الله وكان من أعظم ملوك الدولـــة الأغلبيـــة وأعلاهم صيتا . وكان حاله فى أفريقية أشبه ما يكون بحال عبد الملك بـــن مـــروان فى المشرق فى كثرة الخارجين عليه ومثابرته لهم حتى ظفر بهم ومن أعظم إنجازاتـــة فتحـــه جزيرة صقلية إبتداء من سنة ٢١٢ هـــ/٨٢٧ م ، وترجع أسباب فتح صقليـــــة إلى العوامل الآتية :

١-القضاء على غارات الروم فى غرب البحر المتوسط ، وتطهير الجزر من الســـفن البيزنطية .

٢-أهمية موقع جزيرة صقلية وقربها من سواحل أفريقية مما يهدد ســـواحل دولـــة الأغالبة .

٣-الجهاد فى سبيل الله ورفع مكانة دولة الأغالبة فى نظر المسلمين .

٤-أراد زيادة الله أن يتخلص من ثورات جنده وأن يكسر شوكتهم بعـــد أن إزداد عددهم فتاقت نفسه إلى إشراكهم فى هذه الغزوة .

٥-أما السبب المباشر الذى جعل زيادة الله يسرع بالحملة إلى صقليـــــة أن قـــائدا روميا يسمى فيمى ثار على حاكم صقلية بلاتوس ويعربه العرب بلاطه ، وأعلن الثـــوة واستقل بشرق الجزيرة وتحصن فى سراقوسة وأرسل يستنجد بزيادة الله ويعـــده بملـــك جزيرة صقلية .

لم يكد يصل إستنجاد فيمى إلى زيادة الله لفتح صقلية حتى هب لإجابـــــة غياثـــه وأصدر أوامره دار الصناعة التى أنشأها بسوسة بإخراج أسطول إلى البحر وجهزه بعـــدة عظيمة وملأه بالجنود وأختار لقيادة الجيوش الفاتحة فقيها مالكيا هو أسد بن الفـــــرات فجمع له بذلك بين الإمارتين ، إمارة الجيش وإمارة الأحكام ، وتعـــرض المســـلمون خلال الغزو لكثير من الأهوال حتى وصلوا إلى بلدة مازر ، وفر بلاطه إلى قلورية فقتـــل بها وإستولى المسلمون على عدة حصون فى الجزيرة ثم حاصر أسد بن الفرات سرقوســـة برا و بحرا لكن حاكم بلرم حاصر المسلمين فى سرقوسة فخندق المسلمون على أنفسهم

وفى أثناء الحصار أصاب الجيش وباء قضى على معظم معسكر المسلمين ومن بينهم أسد بن الفرات ، ونتج عن ذلك تفكك واضطراب القوات الفاتحة كما إنتهز بلاتوس أو بلاطه الفرصة وهاجم قصر يانة فقطع بذلك خط الإمدادات عن المسلمين وإضطرهم إلى الإرتداد عن سرقوسة فتحصنوا فى حصن مناو بالقرب منها .

ومما لاشك فيه أن هزيمة المسلمين ترجع إلى عدم خبرة الفقيه أسد بن الفرات وكان ينبغى عليه أن يسير رأسا إلى العاصمة بلرم ويستولى عليها وبذلك يتم الفتح الإسلامى لصقلية خاصة وقد تمكنوا فى بداية الأمر من النزول بأرضها مدفوعين بدافع الجهاد فى سبيل الله لنشر الإسلام ، ويبدو أن فيمى قد قدم بعض المساعدات للمسلمين حتى تمكنوا من الإستيلاء على بعض مدن صقلية التى أصبحت مهددة بالسقوط نهائيا فى يد المسلمين إذا تولى أمرهم قائدا عسكريا يجمع بين القوة الروحية والحنكة والقوة العسكرية .

ثم حدث أمر لم يكن فى الحسبان إذ أقبل أسطول من الأندلس سنة ٢١٤هـ/٨٢٩ م يحمل نفرا من الأندلسيين يقودهم أمير البحر أصبغ بن وكيل المعروف باسم فرغوش ، كما وصلت سفنا من أفريقية مددا للمسلمين فبلغت جميعها ثلاثمائة سفينة ولما رآهم الروم إنهزموا وفكوا الحصار عن المسلمين فى مناو ، وإتجه المسلمون بعد ذلك نحو بلرم وفتحوها فى شهر رجب سنة ٢١٦هـ/٨٣١ م وبعد أن تمكن أصبغ من دخول بلرم أصابه الوباء ومات شهيدا ، وبذلك أتيحت الفرصة أمام البيزنطيين فإستعادوا قصر يانة ، وأرسل زيادة الله بن الأغلب قائدا جديدا هو أبو فهر الأغلبى إستطاع دخول بلرم وطرد البيزنطيين ثم توفى وتولى بعده أخوه أبو غالب وفى تلك الأثناء توفى زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧ م وأحدثت وفاته أثرا كبيرا فى نفوس المسلمين فدب الوهن فى نفوسهم ، ولكنهم إستعادوا حماسهم فى قتال الروم والإغارة على مدن صقلية .

ظلت صقلية طوال العصر الأغلبى مركزا للجهاد وتحولت شيئا فشــــيئا إلى بلـــد إسلامى تسوده الحضارة الإسلامية رغم قلة أعداد المسلمين فيها ولكن الصقليين دخـــل كثير منهم فى الإسلام وأنشأوا حضارة إسلامية فى صقلية وما زالت آثارهم فيها باقيـــة إلى اليوم فى هيئة قصور وبقايا مساجد ، وتحولت بلرم إلى مركز علمى عــــربى وفيـــها عاش بعد سقوط صقلية فى يد النورمان الجغرافى أبى عبد الله محمد بن إدريس المعـــروف بالشريف الإدريسى صاحب كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق رســـم خريطـــة كروية شاملة للعالم - معتمدا فيها على خريطة بطلميوس بعد تصحيحها - مقســـما محيط الأرض طولا الى عشرة أجزاء متساوية ،بخطوط تبدأ من قطب الكرة الشــــمالى ، وتنتهى عند قطبها الجنوبى ، ثم قسمها إلى سبعة أحزمة عرضية فوق خط الإســـتواء ، تنقسم فى داخلها إلى تسعين قسما فيما بين خط الإستواء والقطب الشمالى ، ويعتـــبر الإدريسى سابقا بذلك الجغرافى الإنجليزى مركاتور - القرن التاسع عشر - الذى رسـم خريطة للأرض يعتمد عليها الجغرافيون فى رسم الخرائط حتى وقتنا الحاضر .

وفى أثناء حكم محمد بن الأغلب فتح المسلمون مالطة ســـنة ٢٦١هـــ/٨٧٤ م وتمكن الأغالبة سنة ٢٨٤هـــ/٨٩٧ م من فتح ميقش فى شرق صقلية وغزو قلوريـــة فى أقصى جنوب إيطاليا .

خلفاء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب :

١- لما توفى زيادة الله خلفه أخوه أبو العقال (٢٢٣-٢٢٦هـــ/٨٣٧-٨٤٠ م) وكانت أيامه كلها هادئة إلا إنتفاض خوارج زواغة ولواتة ومكناســـة سنة ٢٤٤هـــ/٨٣٨ م وقد نجح أبو العقال فى القضاء عليهم .كذلك إهتـم بإرسال الحملات إلى صقلية ونجح المسلمون فى إفتتاح عدد من حصونهـــم مثل حصن البلوط وإفتتاح مدينة قلورية .

٢- أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ/٨٤٠-٨٥٦م) ثم خلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢-٢٤٩هـ/٨٤٠-٨٦٣م) ثم خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤ م) ثم خلفه ابن أخيه أبي الغرانيق محمد بن إبراهيم أحمد (٢٥٠-٢٦١هـ/٨٦٤-٨٧٤ م) ثم أخوه إبراهيم ابن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٦٤-٩٠١ م) ويعتبر إبراهيم أعظم أمراء بنى الأغلب فقد أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦ م جنوب القيروان وأتم بناء المسجد الجامع الذى بدأه أبوه إبراهيم أبو أحمد الأغلبى وإليه ينسب الماجل العظيم - والماجل عبارة عن حوض ماء مبنى بالحجر ليجتمع فيه ماء المطر - ، كما إهتم ببناء الحصون والمحارس على سواحل البحر وكانوا ينشئون فى كل محرس برجا للنار لإرسال الإشارات فكان الخبر يصل من بجاية على الساحل الشمالى لجمهورية الجزائر الحالية حتى طرابلس فى أقل من ليلة . أما بالنهار فكانت الإشارات ترسل بالدخان . وفى عهده ظهر أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين فى منازل قبيلة كتامة وبدأ يغير على بلاد الأغالبة . وتوفى إبراهيم أثناء إغارته على ساحل إيطاليا الجنوبى وذلك سنة ٢٨٩هـ/٩٠١ م بأرض قلورية ، وبوفاة إبراهيم بدأ الضعف يدب فى كيان دولة الأغالبة .

ثم تولى بعده أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩-٢٩٠هـ/٩٠١-٩٠٢ م)ثم زيادة الله بن عبد الله آخر حكام الأغالبة (٢٩٠-٢٩٦هـ/٩٠٢- ٩٠٨ م) وقد استهل حكمه بقتل أعمامه وقتل أخاه أبو عبد الله ، وعكف على لذاته ولهوه وأهمل أمور دولته حتى أنهكتها الصراعات والضغوط الخارجية من جانب أبو عبد الله الشيعى الذى أخذت جيوشه تستولى على مدن الأغالبة ولما أحس زيادة الله الثالث بقرب النهاية فر من العاصمة إلى طرابلس ثم إلى مصر فسقطت رقادة وإنقرضت دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨ م .

ويعتبر عصر الأغالبة من أزهى عصور الإزدهار الإقتصادى والعمـــرانى فى تـــاريخ أفريقية خاصة زمن الإستقرار ، فقد إزدهرت الزراعة وساعد على ذلك عدم تعـــرض أفريقية للقحط إلا فى عهد أبى الغرانيق سنة ٢٦٠هـــ/٨٧٣ م ، وترتب على إزدهـــار الزراعة إزدهار الصناعة خاصة صناعة السجاجيد والمنسوجات وصناعة المعـــادن مـــن الذهب والفضة وكذلك صناعة الزجاج ، وراجت التجارة نتيجة إهتمام الأغالبة بتأمين الطرق التجارية وإزدهار الزراعة والصناعة .

كما إهتمت دولة الأغالبة بصناعة السفن مما مكنها من إنشاء إسطول قوى جعلـها من الدول البحرية الهامة على البحر المتوسط كما إهتموا بالعمارة والبناء ، ومن أعظـــم منشئاهم مسجدا القيروان وتونس وهما مسجد كلا من عقبة ومسجد الزيتونة الـــذى بناه عبيد الله بن الحبحاب وإعطائهما صورهما الباقية إلى اليوم . وكان زيادة الله بـــن الأغلب ينفق أموالا كثيرة فى تجديد مأذنة مسجد القيروان ورفع قبابه ، كمـــا أكمـــل إبراهيم بن أحمد سادس أمراء الأغالبة مسجد الزيتونة الذى بناه عبيد الله بن الحبحـــاب سنة ١١٤هـــ/٧٣٢ م وأمر ببناء قبابه المضلعة ووضع فيـــه أعمـــدة الرخـــام وزينـــه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية كما أمر ببناء القبة الكبيرة فى مسجد القيروان ، وقام أبو العباس محمد الأغلبى خامس أمراء الأغالبة ببناء جامع سوسة ، ويعد من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية فى أفريقية .

كذلك إهتم الأغالبة بالمنشآت العسكرية فأنشأوا الأسوار والأبراج ودارين لصناعة السفن فى تونس وسوسة ، وأنشأوا أيضا الرباطات للمجاهدين والمرابطين .

وإهتم أمراء الأغالبة ببناء صهاريج المياه ، والصهريج خزان ماء فوق الأرض ، أمـــا الجب فهو خزان واسع للمياه فى باطن الأرض يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى ٤٠ متر وعمقها نحو عشرين ، ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبوا واسعا بـــالحجر أو

الطوب المطلى وقد بطن بالرخام ويرفع سطح هذه الغرفة على أعمدة وبوائك وله سلالم تؤدى إلى حيث يوجد الماء فى الغرفة ، وللجب مداخل وممرات يدخل منها المطر والهواء ، ويستخرج الماء عن طريق فتحات فى السقف تشبه الآبار .

ومن أبرز فقهاء القيروان أسد بن الفرات ، وأبو سعيد عبد السلام بن حبيب المعروف بإبن سحنون ، وقد عاصر الأغالبة الأربعة الأول وتوفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٨م وتعرض للأذى على يد الأمير الأغلبى زيادة الله الأول الذى أشتدت محنة خلق القرآن فى أيامه ، وكانت الدولة العباسية تمتحن القضاة وكان سحنون ومعظم فقهاء المغرب لا يقولون بخلق القرآن أيام الخليفة المعتصم قبل أن ينال سحنون العذاب ، وينسب إلى سحنون تدوين كتاب مالك بن أنس المعروف بالمدونة . وكان طلاب العلم يفدون إلى القيروان ينهلون من علم علمائها الذين أقاموا حلقات خاصة للدراسة فى المساجد .

دولة الرستميين فى تاهرت

ذكرنا من قبل أن الدولة العباسية قد أرسلت محمد بن الأشعث والى مصر على رأس حملة عسكرية إستطاعت أن تهزم الخوارج الإباضية سنة ١٤٤هـ/٧٦١ م وتقتل أبا الخطاب المعافرى ، وفرار عبد الرحمن بن رستم الإباضى عامل أبو الخطاب إلى المغرب الأوسط عند بلدة حصينة وسط الجبال تسمى تاهرت جنوب الجزائر الحالية ، ولما علم ابن الأشعث بذلك جمع جيشا وسار به لمحاربة عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، وبالرغم من محاصرة ابن الأشعث لعبد الرحمن بن رستم إلا أنه إضطر إلى فك الحصار لمناعة موقع تاهرت وإنتشار وباء الطاعون بين جند ابن الأشعث .

إستقر عبد الرحمن فى تاهرت حتى إجتمع إليه عددا كبيرا من وجهاء الإباضية وعلماؤهم ، وتسارعت قبائل هوارة ولواتة ولماية بالإنضمام إليه ، وأجمع هؤلاء على

مبايعة عبد الرحمن ابن رستم لرئاستهم ، وكان لابد له أن يؤسس مدينة يترل فيها هو وأتباعه تكون عاصمة لدولته فإختار تاهرت حيث لا يمكن الوصول إليها من الغرب والشرق لموقعها بين الجبال ، أما من جهة الجنوب فكان من السهل الإتصال بالإباضية فى جبل نفوسة ، ووقع إختياره على الموقع الذى تقوم عله مدينة تاهرت القديمة . ولما كانت تاهرت مدينة صغيرة وعبد الرحمن فى حاجة إلى مدينة كبيرة لذا أنشأ تاهرت الجديدة وبناها على ضفة نهر يسمى مينه على سفح جبل جزول وتقع على بعد خمسة أميال من تاهرت القديمة ، وأنشأ فيها مسجدا جامعا ، وحصنها بأسوار ، ثم أقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والحوانيت .

وكان لتاهرت عدة موانئ أهمها مرسى وهران الذى كان يربط الدولة الرستمية بالأندلس . وفتحت تاهرت أبوابها لكل الخارجين على الدولة العباسية ، وأقام عبد الرحمن إمامة إباضية تحكم على أساس مبادئ الإباضية القائمة على الأخوة والمساواة والورع ، ولم يبايع الإباضيون عبد الرحمن بن رستم إلا فى سنة ١٦٠هـ/٧٧٦ م ، وقد راعوا أربعة أسس إختاروا على أساسها إمامهم وهى :

١- **الفضل** : ويراد به العدالة وهى جماع صفات الكمال الأخلاقى من حيث سلامة الإعتقاد ، وصحة الجوارح ، ونزاهة النفس .
٢- **العلم** : وهو العلم الكامل للإسلام وعلومه ، وهو ما يوصل إلى مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة .
٣- **الوصية** : ويراد بها إيصاء الإمام بمن يخلفه ، ولا تكون هذه الوصية فرضا ملزما للإباضيين وإنما هى توجيه على غرار ما فعله أبو بكر عندما أوصى لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وكان الإباضيون أميل لإتباع ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بإختيار ستة من الصحابة لينتخبوا من بينهم خليفة للمسلمين .

٤- ألا يكون الإمام من عصبية تؤيده حتى لا يعتمد عليها فى فرض سلطانه على الناس ، ويتم إنتخابه بذلك على أساس الشورى .

وبهذه الصورة بويع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة فى جامع تاهرت ، وسار فى النـــاس بالعدل فوفدت على تاهرت جاليات كثيرة من الكوفيين والبصريين والمصريين والأندلسيين، وكان لكل جالية من هؤلاء حى خاص من أحياء القيروان ، وتوفى عبد الرحمـــن سـنة ١٦٨هـ/٧٨٤ م وكان قد أوصى قبل موته إقتداء بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يختار خلفه سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية وهم : مسعود الأندلســى ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وعمران بن مروان الأندلسى ، وأبـــو الموفــق سعدون بن عطية ، وشكر بن صالح الكتامى ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فنديــن . وبعد إجتماع شيوخ الإباضية تم إختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن وبويع له بالإمامـــة . وكان رجال الدولة الرستمية يميلون إلى اختيار مسعود الأندلسى وكادت الإمامة تخرج من عبد الوهاب لولا تأييد قبيلة زناته له لأن أمه كانت من هذه القبيلة ، كذلك أيده الفــرس بإعتباره من أصل فارسى ، وفضل مسعود الأندلسى الإنسحاب وبذلك غلب مبدأ الوراثــة على مبدأ الإختيار والشورى .

وكان يزيد بن فندين يطمع فى الإمامة لنفسه فقام بإثارة الفتنة فى تاهرت وأنكر إمامـة عبد الوهاب عن طريق الوراثة ، وأدى ذلك إلى إنشقاق فريق على الإمام عبد الوهـــاب وسمى هذا الفريق بالنكارية وبذلك إنقسم الإباضية إلى فرقتين :

الأولى : تسمى الوهابية ، وهم أنصار عبد الوهاب بن عبد الرحمن . **والثانية:** النكاريـة ، أى المنكرين لإمامة عبد الوهاب . وقامت المعارك فى تاهرت بين الفريقين وإنتهت بهزيمـــة فرقة النكارية . و لم ينته أمر النكارية بهزيمتها عند هذا الحد إذ إنضم إليها الواصلية المعتزلـة من قبيلة زناتة وخرجوا على عبد الوهاب خاصة وأنه قتل ابن فندين. ووقعــت حـروب كثيرة بينهم وكان الواصلية يدعون إلى الإمامة الإسلامية باللسان وإنتشر مذهبهم فى شمـال

تاهرت وشمال غرب المغرب الأقصى وإستطاع عبد الوهاب بن رستم القضاء على تمردهم وحاولت قبيلة هوارة الخروج على طاعة عبد الوهاب متحالفين مع قبيلة لواته عن طريق المصاهرة وقد حارب عبد الوهاب هذا الحلف بنفس الوسيلة فزوج إبنته لأمير هوارة وأصهر من شيخ لواته .

ساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك فعزم عبد الوهاب أن يختم حياته بالحج إلى مكة فاستخلف ابنه أفلح على القيروان ومضى شرقا إلى جبل نفوسة فنزل فى مدينة شروس غير أن أهل جبل نفوسة منعوه من مواصلة السير إلى مكة خشية الوقوع فى أيدى العباسيين فأقام عبد الوهاب فى جبل نفوسة سبع سنوات كان يتولى خلالها التدريس فى مسجد جبل نفوسة .

وواتت هوارة الفرصة للإنفصال بطرابلس عن دولة الأغالبة نتيجة لإقامة عبد الوهاب فى جبل نفوسة فأعلنت إستقلالها عن الخلافة العباسية سنة ١٩٦هـ/٨١١ م فإستنجد عامل طرابلس بإبراهيم بن الأغلب فأرسل جيشا بقيادة ابنه أبا العباس عبد الله وتمكن من هزيمة هوارة ودخول طرابلس ، وإستنجدت هوارة بعبد الوهاب فزحف بجيش ضخم إلى طرابلس وشدد عليها الحصار ، وفى شوال سنة ١٩٦هـ/ يونيو ٨١٢ م توفى إبراهيم بن الأغلب فإتفق ابنه عبد الله مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل ، ومن ثم عاد عبد الوهاب إلى جبل نفوسة وعزم على العودة إلى تاهرت حيث توفى فى سنة ٢١١هـ/٨٢٦ م وقيل سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣ م .

وإجتمع شيوخ الإباضية على مبايعة ابنه أفلح بالإمامة ، وعنى بنشر الأمن فى أنحاء الدولة الرستمية ، وسار على نهج أبيه فى قمع الثائرين وتمكن من هزيمة خلف بن السمح ابن أبى الخطاب الذى أراد الإستقلال عن الدولة الرستمية فى جبل نفوسة وأعمال طرابلس وقابس سنة ٢٢١هـ/٨٣٥ م .

وتوفى أبو سعيد ميمون الأفلح سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤ م وخلفه ابنه أبو بكر وعندما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيه أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة وترك مهمة القيام بشئون الدولة واستغرق فى حياة اللهو وإحتجب عن العامة ، ثم وكل إلى صهره محمد بن عرفه وكان من أعيان تاهرت مهمة الإتصال بالرعية وكان ابن عرفة يحسن إلى الناس حتى أصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة والإسمية لأبى بكر فغضب أهل الشورى من علماء تاهرت لإستبداد ابن عرفة وخافوا على إمامتهم وحرضوا أبو بكر ضده فعهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفه فإغتاله الغلام ، وإشتعلت نار الفتنة فى تاهرت، وإنقسم أهلها إلى فريقين فريق من أنصار ابن عرفة ويتألف من جند العباسيين وأنصارهم وفريق الإمام أبو بكر ويتألف من نفوسة والعجم واضطر أبو اليقظان محمد إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته بعد أن إحتدمت نار الفتنة فى المدينة ، وإستغل محمد الهوارى الإباضى ذلك وإستولى على عاصمة الرستميين . أما الإمام أبو اليقظان محمد فقد إستنجد بأهل جبل نفوسة وتمكن من إسترجاع تاهرت بعد حصار طويل دام نحو سبع سنوات ، وعمل بعد ذلك على بسط الأمن والعدل فى البلاد ، وتمكن من هزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون سنة ٢٦٧هـ/ ٨٨٩ م الذى حاول الإستيلاء على طرابلس وأعمالها ، واستمر أبو اليقظان فى الامامة ٤٠ عاما ثم توفى سنة ٢٨١هـ/٨٩٥ م ، وتعتبر فترة حكمه فترة إستقرار .

وأسندت الإمامة بعد ذلك إلى أبى حاتم يوسف بن محمد ، وفى إمامته قامت الحروب الأهلية فى تاهرت إذ خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح فإحتدم القتال بين الإمام وعمه وانتهى بهزيمة عمه يعقوب وتناقصت قوة الدولة الرستمية ، فقد استطاع ابراهيم ابن أحمد الأغلبى هزيمة جيش الرستميين بقيادة أفلح بن العباس فى واقعة قصر مانو بين قابس وطرابلس ونتج عن هذه المعركة استنفاذ قوى الرستميين وسقوط هيبة الإمام وقتله على يد أبناء اليقظان سنة ٢٩٤هـ/ ٩٠٦ م .

بويع بالإمامة اليقظان بعد مصرع أخيه وقد إنتهت دولته على يد أبو عبد الله الشـيعى الذى دخل تاهرت سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩ م وقتله اليقظان آخر أئمة الرستميين فى تاهرت .

وقد ساهم الإباضيون بدور كبير فى إزدهار التجارة إزدهارا كبيرا فى المغرب الأوسـط وبلاد الصحراء ، وتحولت تاهرت إلى مركز تجارى تفد إليه قوافل التجار من فزان وجبـل نفوسة وطرابلس شرقا وأصبحت أركلا قاعدة الرستميين التجارية على أبواب الصحـراء مركزا تجاريا هاما تفد إليه القوافل من سجلماسة عاصمة دولة بنى اليسع بن مدرار الصفرية فى الجنوب الغربى وبوابة أفريقية المدارية ، ومما لاشك فيه أن التجار الإبـاضيون كـانوا يفدون على سجلماسة يحملون المنسوجات الصوفية والقطنية والكتانية والفخار ويعـودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات .

كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين تاهرت وبلاد الأندلس فكانت السفن تـتردد بين وهران والمرية حاملة السلع التجارية المختلفة إلى كل من البلدين .

أما بالنسبة للحياة العلمية فى عصر الرستميين فقد ساهم الأئمة الرستميون بدور كبير فى إنعاش الحياة العلمية فكانوا يقومون بالتدريس فى جامع تاهرت ومدينة شـروس بجبـل نفوسة ومدينة جالو وورجلان ، وكان عبد الرحمن بن رستم له باع طويل فى علوم الديـن واللغة والفلك كذلك الحال بالنسبة للإمام عبد الوهاب حتى أنه صنف كتابا سماه (نـوازل نفوسة) وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها ، وكان الإمام أفلح أديبا شاعرا وعالما فى الحساب والفلك .

ومن أبرز علماء الإباضية فى جبل نفوسة الشيخ مهدى النفوسى ، ومحمد بن يـانس . ومن علماء تاهرت ابن أبى إدريس ، وأبو العباس بن فتحون وغيرهم . وتشير الروايـات التاريخية إلى أن مكتبة تاهرت كانت تضم نحوا من ٣٠٠ ألف مجلد فى مختلف العلوم وقـد خربت هذه المكتبة على أيدى رجال الدولة الفاطمية .

دولة الأدارسة :١٧٢-٣٧٥هـ / ٧٨٨-٩٨٥م

قامت دولة الأدارسة فى بلاد المغرب الأقصى وقد سبق أن ذكرنا أن المغرب الأقصى يشمل الأراضى الواقعة ما بين تلمسان شرقا و المحيط الأطلنطى غربا و بين سبتة و طنجة شمالا و سجلماسة جنوبا ، وقد تميز هذا الإقليم بتنوع تضاريسه فيضم سلسلة من جبال أطلس و سهول ساحليه بين الجبال وساحل المحيط الأطلنطى ، و تشق هذه السهول أنهار أو وديان تنحدر من جبال أطلس إلى المحيط و هى من الشمال إلى الجنوب وادى لوكس ، ووادى سبو وأهم مدنه فاس و مكناس ، ثم وادى أبو الرقراق وعلى ضفته الشرقية عند المصب مدينة سلا وعلى ضفته الغربية مدينة رباط الفتح ، ثم وادى أم الربيع ثم وادى تانسيفت وتقع على أحد فروعه مدينة مراكش ، ثم وادى السوس و من أهم مدنه أغادير ثم وادى درعة فى أقصى الجنوب .

وقد أدى تنوع تضاريس بلاد المغرب الأقصى إلى تنوع المناخ و تنوع الحياة الإقتصادية سواء كانت زراعية ورعوية حيث إمتدت المراعى فى السهول وعلى قمم الجبال كما قامت صناعات أولية على معادن الحديد والنحاس والفضة ، كما نشطت حركة التجارة خاصة فى نفيس و إغماد . وعلى الرغم من إمتلاء المغرب الأقصى بهذه الثروة الإقتصادية إلا أن الفوضى السياسية قد أثرت تأثيرا سلبيا على الإزدهار الإقتصادى ومن ثم على الأوضاع الإجتماعية ، فشهد المغرب الأقصى صراعات متعددة ما بين القبائل البربرية بعضها ببعض وبين العرب والبربر.

و قد أدى ذلك إلى ظهور طبقة الأرستقراطية التى تمتلك الأرض وتحتكر إستغلال المناجم و التجارة خصوصا مع بلاد السودان . وظهرت طبقة وسطى أغلبها من الفرس الذين وفدوا إلى المغرب زمن الفتح الإسلامى ، والأندلسيين الذين إستقروا فى الجهات الشمالية ، فضلا عن اليهود الذين عملوا بالتجارة بصفة خاصة ، ثم طبقة العامة و أغلبها

من البربر و السودان ، وقد أدى هذا التباين الطبقى إلى صراعات مهدت لنجاح قيام دولة الأدارسة .

ومن الناحية الدينية سنجد أن الإسلام قد إنتشر فى بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام دولة الأدارسة مع وجود بعض الديانات السماوية الأخرى مثل النصرانية واليهودية ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض القبائل المغربية البربرية التى إعتنقت الإسلام قد مزجته بمعتقدات قديمة كالكهانة والسحر .

أما المذاهب الدينية فكان أكثرها إنتشارا المذهب الصفرى الخارجى وإستطاع معتنقوه من إقامة دولتى المدراريين والبرغواطيين ، وإمارة بنى وكيل ، وإمارة برغوت بن سعيد . كما إنتشر مذهب المعتزلة بين قبائل أوربة وزناتة ، ووجدت بعض تجمعات منهم فى درعة والسوس الأقصى وملوية .

كما إنتشر مذهب الإمام مالك بن أنس فى إمارة نكور ، وفى أصيلة ، وتمركز المالكيون فى الأربطة لجهاد البورغواطيين وفى منطقة السوس الأقصى لجهاد اليهود .

وقد إختلف المؤرخون بخصوص تحديد مذهب دولة الأدارسة ، فيذهب بعض المؤرخين إلى أن دولة الأدارسة رغم علويتها لم تكن دولة شيعية بل لم يكن أحد من رجالها أو أتباعهم شيعيا فقد كانوا سنيين ، لايعرفون الآراء الشيعية التى شاعت على أيام الفاطميين ، بينما يرى البعض الآخر من المؤرخين أن قيام دولة الأدارسة يرتبط بالتشيع الزيدى فكرا ودعوة والذى إمترج بالمعتزلة خاصة فى نظرية الإمامة ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويبرهن على ذلك أنه بعد فشل ثورة زيد بن على سنة ١٢٤هـ و التى فشلت نتيجة خذلان أهل العراق لزيد بن على خاصة وأن طبقة الأرستقراطية قد ناهضوا الدعوة الزيدية لأنها كانت تنادى بالعدالة الإجتماعية فقد دعت إلى توزيع الخراج بالعدل و رد الفئ إلى من حرموا منه . كما أن الدعوة الزيدية قد نادت بجواز إمامة المفضول ، أى أنها

إعترفت ضمنيا بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأحدث هذا إنشقاقا فى صفوف أنصارها من الشيعة فتخلى الكثيرون منهم عن مناصرتها ومن ناحية أخرى فقد آزرها الفقهاء من أهل السنة و لم يجدوا غضاضة فى ذلك .

وبعد فشل ثورة يحيى بن زيد سنة ١٢٥ هـ إندمجت الدعوة الزيدية فى الدعوة العباسية سنة ١٢٧ هـ بزعامة محمد النفس الزكية ، وبعد قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إنفصلت الدعوة الزيدية بزعامة النفس الزكية و ساندهم المعتزلة لمعارضتهم للعباسيين ومن ثم فقد إستقطبوا الكثير ممن اندرجوا فى الدعوة العباسية فإتسع نطاق الشيعة الزيدية وقد شجع ذلك محمد النفس الزكية على إعلان راية العصيان فى وجه العباسيين سنة ١٤٥ هـ ، وبعد فشل هذه الثورة إنقسم العلويون على أنفسهم ما بين حسنيين وحسنيين، فآلت زعامة الزيدية إلى عيسى بن زيد وعلى بن العباس بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبي طالب وقد قتل الأخير مسموما على يد الخليفة المهدى العباسى كما قبض على عيسى بن زيد وسجنه إلى أن توفى .

أما الزيدية فقد تزعمهم الحسين بن على بن الحسن بن على الذى ثار على الخلافة العباسية فى منطقة الحجاز سنة ١٦٩ هـ و تمكن الخليفة موسى الهادى من القضاء على ثورته فى معركة دامية قرب مكة وهى معركة فخ حيث دارت مذبحة قريبة الشبه بمذبحة كربلاء حيث لم ينج منها إلا يحيى بن عبد الله بن الحسن و أخاه إدريس ، أما الأول وهو يحيى فقد أسس دولة فى بلاد الديلم و قضى عليها هارون الرشيد أما إدريس بن عبد الله فقد فر إلى بلاد المغرب وإستطاع أن يؤسس دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ و قد مهدت ظروف المغرب التى أشرنا إليها لإستمرار دولة الأدارسة حوالى قرنين و نصف .

أما بخصوص جهود الزيدية فى المغرب وكيف إستطاع إدريس تأسيس دولة الأدارسة فهذا ما سنتاوله بإيجاز ، ذلك أن الصراع بين العباسيين ومحمد النفس الزكية قد جعل الأخير يرسل عيسى بن عبد الله الزيدى إلى بلاد المغرب فإستطاع أن يبث الدعوة الزيدية

بين البربر ثم عاد إلى الشرق فبعث محمد النفس الزكية أخاه سليمان إلى المغرب فنزل بتلمسان و أخذ يدعو للحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بعد مقتل النفس الزكي لكنه عاد للشرق للمشاركة بجانب الحسين بن على فى ثورته ضد العباسيين سنة ١٦٩ هـ/٧٨٦ م فى خلافة الهادى العباسى ، و قام بأمر الدعوة فى المغرب إدريس بن عبد الله والذى دعى أيضا بإمامة الحسين بن على ولكنه عاد إلى الشرق للمشاركة فى معركة فخ .

وبعد هزيمة الحسين بن على فر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب إلى مصرحيث دبر له الإقامة بها وأمر خروجه منها والى مصر على بن سليمان الذى اعتنق المذهب الزيدى . وفى رواية أخرى تشير إلى أن واضح مولى صالح بن الخليفة المنصور صاحب بريد مصر هو الذى ساعد إدريس ومولاه راشد فى الخروج من مصر إلى برقة ومنها إنتقل إدريس برفقة راشد إلى القيروان ثم إلى تلمسان ، وبعد رحلة سنتين أى خلال سنة ١٧١هـ / ٧٨٨ م ظهر راشد وإدريس فى مدينة طنجة فاتصل بإسحق الأوربى فى واليلى حيث تم الإتفاق بين إدريس وإسحق على أن يترل إدريس مدينة واليلى وأخذا فى إعداد العدة لتأسيس الدولة وبويع إدريس الأول فى ربيع الأول ١٧٢هـ / أغسطس ٧٨٨ م وبدأ يدعو لنفسه وبايعه شيوخ قبائل أوروبا وزيناتا ومكناسا وغمارة وكانت معظم هذه القبائل خاصة قبيلة غمارة ناقمة على قبيلة برغواطة .

وقد قام إدريس الأول بإلقاء خطبة حرص فيها على إرضاء القبائل البربرية سواء كانوا من السنة أو الخوارج وكذلك المعتزلة كما لم يذكر فى خطبته أى ذكر للتشيع ولعل هذا هو ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن دولة الأدارسة كانت دولة قائمة على المذهب السني ، ويبدو أن إدريس قد نهج سياسة بارعة فى هذا الشأن وفى نفس الوقت تعهد بإتباع سياسة العدل بين الرعية وبعد قليل أصبح إدريس الأول أمير واليلى وزعيم قبيلة أوروبا الغربية وإستطاع أن يسود حوض سبو وبعض المناطق الشمالية من المغرب الأقصى ، و فى أقل من عام تمكن إدريس من مد سلطانه من تلمسان إلى ريف تامسنا الغنى بإنتاجه الزراعى

والحيواني ومن طنجة إلى وادى أم الربيع و يبدو أن توسع إدريس جهة الشرق قد أدخـــل الفزع في قلوب العباسيين والأغالبة في أفريقيا فلجأ الخليفة هارون الرشيد إلى تدبير مؤامـــرة للتخلص من إدريس بالتواطؤ مع إبراهيم بن الأغلب صاحب أفريقيا ، و تشير الروايـــات التاريخية إلى أن هارون الرشيد إستشار وزيره يحيى البرمكي والذى أعلمه بإستحالة إرســال قوات عباسية إلى المغرب الأقصى للقضاء على دولة إدريس بن عبد الله وأشار عليه بـــأن يرسل من يغتاله ووقع إختيارهما على رجل يسمى سليمان بن جرير ويدعـــى بالشـــماخ فحمل السم وتمكن من الدخول في خدمة إدريس وكسب ثقته ثم تحيل فدس له السم فتـــم إغتياله سنة ١٧٧هـــ وقام مولاه راشد بتولى أمر دولة الأدارسة حتى ولدت جارية لإدريس إبنه إدريس الثاني وإهتم راشد بتربيته وإعداده للإمارة إلى أن توفى راشد ويقال أن إبراهيـــم ابن الأغلب قد تحيل في قتله هو الآخر .

لما توفى راشد خلفه أبا خالد يزيد بن إلياس العبدى في الوصاية على إدريـــس الثـــاني فجدد له البيعة سنة ١٨٧ هـــ / ٨٠٣ م ، وفى سنة ١٩٢ هـــ / ٨٠٨ م حكم إدريـــس الثاني حكما مستقلا وقد بلغ من العمر ١٧ سنة وفى سنة ١٩٣هـــ أسس إدريس الثـــاني عدوة القرويين غربي مدينة أبيه إدريس الأول على الضفة اليسرى من وادى فـــاس ومـــن العدوتين تكونت مدينة فاس وإبتنى إدريس لنفسه دارا في عدوة القرويين وأنشـــأ مســـجد فاس الجامع وإتخذ مدينة فاس عاصمة لدولة الأدارسة من سنة ١٩٦ هـــ /٨١١ م .

وفى سنة ١٩٧ هـــ / ٨١٢ م بدأ إدريس الثاني بعد أن إستقر له الأمر وكثر أتباعـــه خاصة بوفود عناصر جديدة إنضمت إليه من البربر وعرب الأندلس وعرب وفرس أفريقيـــا ومن ثم كثرت جيوشه وإستطاع أن يشن سلسلة من الحملات ثبتت سلطان دولة الأدارسة من تلمسان شرقا إلى ساحل المحيط الأطلنطى غربا كما نشط إدريس الثـــاني في حـــرب الخوارج في جبال الأطلس ، وحرب البرغواطيين .

توفى إدريس الثانى فى شهر ربيع الأول سنة ٢٠٢ هـ / سبتمبر ٨١٨ م ، وخلفه فى حكم الدولة الإدريسية إبنه محمد بن إدريس وقد قام بتقسيم دولته بين أخواته مما تسبب فى ضعف دولة الأدارسة نتيجة لإستقلال هؤلاء الأخوة بما تحت يده من أراضى ، فى حين يرى أن سياسة إدريس الثانى هذه كانت محاولة منه لإقرار نظام لا مركزى فى الحكم و أن سياسته كانت لتقوية أسرة الأدارسة بأن تكون الولايات والقيادات العسكرية بين أيدى أفرادها مما يضع حدا لصراع العصبيات حول المناصب القيادية فى دولة الأدارسة وإحكام سيطرة الأدارسة على القبائل داخل الدولة .

وقد إكتفى محمد بن إدريس بولاية فاس ، وولى أخوه القاسم طنجة وسبتة وحجر النسر وبلاد معمورة ، وتولى داود بلاد هوارة وتسول وتازة ومكناسة وجبال غياثة ، وعمر بلاد الهبط أو هبط غمارة و ما والاها ، وتولى أحمد مدينة مكناسة وبلاد فازاز ومدينة تدله ، وعبد الله أغمات ونفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى ، أما حمزة فقد تولى تلمسان وأعمالها ، وتولى يحيى أصيلة والعرائش وبلاد زواغة ، أما عيسى فقد تولى بلاد شالة وسلا وأزمور وتامسنا وبرغواطة .

وبالرغم من نجاح هذه السياسة ، إلا أنها فجرت الصراع بين أفراد أسرة الأدارسة منذ عهد محمد بن إدريس وقد بدأ الصراع بخروج عيسى بن إدريس على أخيه محمد بفاس وقد إستعان الأخير بأخيه عمر على الثائرين من إخوته وأعطاه أعمالهم فإتسعت ولاية عمر حتى بلغت نصف الدولة الإدريسية من جهة الشمال والغرب كله ولما توفى محمد بن إدريس الثانى سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ترك دولة مفرقة وضعيفة ، فخلفه إبنه على بن محمد وكان فى التاسعة من عمره ولقب حيدرة وهو لقب كان يطلق على على بن أبى طالب ومعناه الأسد فحكم تحت وصاية أقاربه حتى توفى فى شهر رجب سنة ٢٣٤ هـ فخلفه أخوه يحيى بن محمد وفى عهده بلغت دولته أوجها فعظمت فاس وقامت فيها المنشئات فأنشأ جامع القرويين على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهرى ،كما بنيت بفاس الحمامات والفنادق للتجارة ، وبنيت خارجها الأرباض .

وبعد يحيى بن محمد حكم إبنه يحيى الثانى وكان شابا طائشا سيء السيرة فثارت عليه العامة فإختفى بعدوة الأندلس ومات فى مخبأه ، فإختار أهل فاس إبن عمه على الثانى بن عمر بن إدريس الثانى فإنتقل ملك الأدارسة إلى فرع عمر بن إدريس وإستقرت قدمه فترة من الزمن ، حتى ثار عليه عبد الرازق الفهرى أحد زعماء الخوارج الصفرية ففر على بن عمر إلى قبيلة أوروبا .

وقد خلفه يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثانى الذى صرف وقته فى قتال الخوارج الصفرية منذ توليه الحكم حتى سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م حين قتله الربيع بن سليمان .

إنتقل الملك إلى يحيى الرابع بن إدريس بن على بن عمر بن إدريس (٢٩٢ - ٣١٠هـ) ويشير المؤرخون إلى أن يحيى الرابع كان أوسع أمراء الأدارسة سلطانا وأعلاهم قدرا ولاشك أن فى ذلك قدر كبير من المبالغة فقد إستطاع الفاطميون هزيمة يحيى الرابع وإستطاع قائد عبيد الله المهدى مصالة بن حبوس فتح تاهرت ثم هزيمة يحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة وحاصر مدينة فاس وإضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يودى إليه بعض الأموال وأن يبايع الخليفة الفاطمى المهدى وولى مصالة يحيى بن إدريس فاس ، كما ولى موسى بن أبى العافية شيخ مكناسة وجعله عاملا على تسول وبلاد تاسا .

وفى سنة ٣١٣ هـ إستطاع موسى بن أبى العافية القضاء على أمراء الأدارسة القائمين بالأمر فى بعض نواحى المغرب الأقصى ، ونفى الباقين إلى قلعة فى جبال الريف تسمى حجر النسر وبذلك ينتهى الدور الأول من تاريخ الأدارسة إلى أن قامت دولتهم على يد زعيم من أحفادهم وهو الحسن بن قنون الذى إتخذ من قلعة حجر النسر مقرا لإمارته ودخل بنو قنون فى سلسلة من الصراعات مع الفاطميين والأمويين فى الأندلس وكان أبو القاسم بن محمد بن القاسم بن كنون آخر أمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى التى زالت فى عهده على يد الفاطميين وقامت دولة بنى زيرى المغراوية على أنقاضها .